

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التوسل في ضوء سنة الحبيب ﷺ

د. محمد مصطفى محمد سالم

أستاذ مساعد بقسم الحديث وعلومه

بكلية أصول الدين والدعوة

بالزقازيق

من ١٣٩ إلى ٢٢٤

المقدمة

الحمد لله رب العالمين... حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين سيدنا محمد بن عبد الله اللهم صلي وسلم وبارك عليه وعلى آله هداة الإسلام، وأصحابه السادة الأعلام، وأزواجه الطاهرات الكرام، واجمعنا عليه يا ربنا في أعلى مقام، وارزقنا يا مولانا في جواره حسن الختام.

وبعد،،

فنحن في هذا الزمان الذي اختلط فيه الحق بالباطل، والحابل بالنابل والحلال بالحرام والصالح بالطالح والمفسد بالمصلح حتى أصبح الدين كلأ مباحاً يتكلم فيه كل من هب ودب وكل جاهل وعالم فاختلطت الأمور، وتشعبت الآراء وفست الأخلاق فرمى كل فريق غيره ممن خالفه بالشرك تارة، وبالضلال أخرى، وكثرت الأحقاد، وشهر كل منهم سلاحه في وجه غيره معتقداً أنه على حق، وأن فكره هو الفكر السليم النابع من الكتاب والسنة، وأن غيره في شرك أو ضلال، ويجب مجاهدته ومحاربته لأن الدين يأمر بجهاد المشركين والمنافقين قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾^(١) فتفرقت الأمة، وتمزق شملها - وذهبت هيبتها ووحدتها، واحتر الناس في أمرهم، فإلى من يسمعون، وعمن يأخذون، ولمن يستفتون. فإذا ما ذكر لهم العالم المتخصص في العلوم الشرعية الدليل من السنة سارعوا بقولهم "حديث ضعيف" وإذا عجزوا عن تضعيفه بسبب وجوده في كتب الصحاح لجأوا إلى تأويله حسب أهوائهم، ولووا أعناق النصوص لإبراز واستخراج احتمالات بعيدة لا تمت إلى استنباط ما يريد الله من تلك النصوص بصلة فإذا ما ذكرت لهم علماء الأمة وجهابذتها كالصحابة والتابعين وأئمة المذاهب وحفاظ الحديث ونقاده بأنهم فهموا من هذه النصوص كذا وكذا، تجد الجواب سريعاً: "كل يؤخذ منه ويرد ما عدا رسول الله ﷺ". وأصبح همهم الأول، وشغلهم الشاغل هو السفسطة والجدل والمكابرة والحكم على الناس، هذا فاسق، وهذا مشرك، وهذا مبتدع، وذاك ضال فاجر، ومن العجيب أنك لا ترى

أحدا من هذه الأصناف يتكلم في غير الدين، فلا يتناول الواحد منهم ليفتى في الطب أو في الهندسة أو في الصيدلة أو في الاقتصاد أو في الفلك أو في القانون أو حتى في الزراعة فإذا ما نظرت وبحثت أحوالهم وجدت معظمهم فشل في التعليم أو أسعفه الحظ فحصل على شهادة متوسطة أو فوق المتوسطة أو أفاض الله عز وجل عليه فحصل على شهادة عاليه في التجارة أو الزراعة أو غيرها، فضم إليها بعض القراءات البسيطة في العلوم الشرعية، فأجلس نفسه على كرسي الفتوى، والحكم على الناس وأفعالهم.

ومن هذه الأشياء التي تطرقوا إليها بألسنة حداد التوسل بالرسول ﷺ وبغيره من الأولياء والصالحين والتبرك بهم وزيارتهم ومودتهم، والاستغاثة بهم وغير ذلك.

ففي هذه الأشياء وقفوا موقفاً شديداً ورموا فاعل ذلك، بأشد شيء وهو الكفر والشرك زاعمين أن ذلك ابتداع في الدين، ويتنافى مع عقيدة التوحيد، ولم يفعل ذلك أحد ممن سلف كل ذلك ولا تنطوي حقيقتهم إلا على لحية طويلة وثوب قصير، وحائق اللحية كافر في نظرهم لا تجوز الصلاة خلفه، فإذا ما بحثت حالهم وجدتهم ربما يعرفون أحكام التجويد أو بعضها ولا تجدهم يعرفون شيئاً عن اللغة العربية وقواعد النحو والصرف والإعلال والإبدال والخاص والعام والمحكم والمتشابه والمبهم والمحدد والمطلق والمقيد والمفصل والمجمل وغير ذلك فكان هذا الصنف سبباً في تمزق الأمة وضعفها وضياعها.

ولقد بلغت بهم الوقاحة أن أحدهم صرخ على المنبر قائلاً: من كان عنده كتاب "فتح الباري فليحرقه و إلا فهو مشرك، وسمعت أيضاً من أحد أئمة المساجد في مركز تدريب الأئمة وكنت أحاضرهم يقول: أن كلام الشيخ الشعراوي كله شرك بالله لأنها حلقات مسجلة في مساجد بها أضرحة" فإذا كان هؤلاء أئمة المساجد فإننا لله وإننا إليه راجعون "ولهذا كله استخرت الله تعالى في كشف النقاب وتوضيح وجه الحق والصواب في بعض هذه الأمور وهو موضوع "التوسل في ضوء سنة الحبيب المصطفى ﷺ وآثار الصحابة والتابعين وعسى الله سبحانه أن يجمع شمل أمتنا ويعيدها إلى رشدنا ويجنب أبناءها الزيغ والشطط بجاه الحبيب المصطفى ﷺ وآل بيته الطيبين الطاهرين.

التوسل

قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾^(١) وقال تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾^(٢).

الأحاديث:

١ - أخرج البخاري بسنده عن عبد الله بن دينار، عن أبيه قال: سمعت ابن عمر رضي الله عنهما يتمثل بشعر أبي طالب:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه . . . ثمال اليتامى عصمة للأرامل^(٣)

٢ - وأخرج البخاري أيضاً في صحيحه قال:

حدثنا الحسن بن محمد، قال: حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري، قال: حدثني أبي عبد الله بن المثنى عن ثمامة بن عبد الله بن أنس، عن أنس - رضي الله عنه:

أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كان إذا قحطوا استسقى بالعباس ابن عبد المطلب فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فنتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا. قال فيسقون^(٤).

٣ - أخرج الترمذي في سننه قال: حدثنا محمود بن غيلان، حدثنا عثمان بن عمر، حدثنا شعبة، عن أبي جعفر، عن عمارة بن خزيمة بن ثابت، عن عثمان ابن

(١) سورة المائدة الآية / ٣٥.

(٢) سورة الإسراء الآيات / ٥٦، ٥٧.

(٣) البخاري: كتاب الاستسقاء - باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا جـ ٢ / ٥٧٤ رقم

١٠٠٨، ١٠٠٩.

(٤) البخاري نفس الكتاب والباب السابق جـ ٢ / ٥٧٤ رقم ١٠١٠.

حنيف، أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني. قال إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت فهو خير لك. قال: فادعه، قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه، ويدعو بهذا الدعاء: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد ﷺ نبي الرحمة، إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي، اللهم فشفعه في^(١).

- (١) الترمذي: كتاب الدعوات باب رقم ١١٩ ج ٥/٥٣١ حديث رقم ٣٥٧٨ وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، من حديث أبي جعفر وهو الخطمي، وعثمان بن حنيف هو آخر سهل بن حنيف.
- ابن ماجه: في إقامة الصلاة - باب ما جاء في صلاة الحاجة ج ١/ ٤٤١ رقم ١٣٨٥ عن أحمد بن منصور بن سيار عن عثمان بن عمر - به - بلفظ قريب.
- أحمد: في المسند ٤/ ١٣٨ عن عثمان بن عمر - به - بلفظ قريب.
- ومن طريق آخر أخرجه عن روح عن شعبه - به - بمعناه.
- ومن طريق ثالث عن مؤمل عن حماد بن سلمه عن أبي جعفر الخطمي - به - بمعناه.
- ابن خزيمة: في صحيحه - كتاب الصلاة - باب صلاة الترغيب والترهيب ١/ ٦٠٣ رقم ١٢١٩ عن محمد بن بشار وأبي موسى كلاهما عن عثمان بن عمر - به - بلفظ قريب، وفيه زاد أبو موسى "وشفعني فيه" قال: ثم كأنه شك بعد في "وشفعني فيه".
- الحاكم في المستدرک: كتاب صلاة التطوع ج ١/ ٤٥٨ رقم ١١٨٠ من طريق العباس ابن محمد الدوري، عن عثمان بن عمر - به - بمعناه، وفي آخره "اللهم شفعه فيّ وشفعني فيه".

وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

- وكذلك في كتاب الدعاء والتكبير ج ١/ ٧٠٧ رقم ١٩٢٩ من طريق العباس الدوري، عن عون بن عمارة البصري، عن روح بن القاسم، عن أبي جعفر - به - بمعناه وصححه، ووافقه الذهبي. وأيضاً في الحديث بعده برقم ١٩٣٠ من طريق أحمد بن شبيب بن سعيد الحبطي، عن أبيه، عن روح بن القاسم، عن أبي جعفر المدني وهو الخطمي، عن أبي أمامة بن سهل ابن حنيف، عن عمه عثمان بن حنيف بمعناه وفي آخره قال عثمان: فوالله

= ما تفرقنا، ولا طال بنا الحديث حتى دخل الرجل وكأنه لم يكن به ضر قط. وصححه. وسكت عنه الذهبي.

- عبد بن حميد: في مسنده ص: ١٤٧ رقم ٣٧٩ بمعناه، قال عبد بن حميد: أخبرنا عثمان ابن عمر، أخبرنا شعبة به.

- الطبراني: في الكبير ٣١ / ٩ رقم ٨٣١١ قال: حدثنا طاهر بن عيسى بن قيرس المصري المقرئ، حدثنا أصبغ بن الفرج، حدثنا ابن وهب، عن أبي سعيد المكى، عن روح بن القاسم عن أبي جعفر الخطمي المدني، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، عن عمه عثمان بن حنيف: أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان - رضى الله عنه - في حاجة له فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته، فلقى ابن حنيف فشكى ذلك إليه، فقال له عثمان بن حنيف أنت الميضاة فتوضاً، ثم اتت المسجد فصل فيه ركعتين ثم قل:

اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد ﷺ نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربى فتقضى لى حاجتى وتذكر حاجتك، ورح حتى أروح معك، فانطلق الرجل فصنع ما قال له، ثم أتى باب عثمان بن عفان - رضى الله عنه - فجاء البواب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان بن عفان، فأجلسه معه على الطنفسة، فقال: حاجتك. فذكر حاجته، وقضاها له ثم قال: ما ذكرت حاجتك حتى كان الساعة، وقال: ما كانت لك من حاجة فاذكرها ثم إن الرجل خرج من عنده، فلقى عثمان بن حنيف فقال له: جزاك الله خيراً، ما كان ينظر فى حاجتى ولا يلتفت إلىّ حتى كلمته فىّ، فقال عثمان بن حنيف: والله ما كلمته، ولكنى شهدت رسول الله ﷺ وأتاه ضريير فشكا إليه ذهاب بصره، فقال له النبى ﷺ: فتصبر" فقال: يا رسول الله. ليس لى قائد وقد شق علىّ، فقال النبى ﷺ: انت الميضاة فتوضاً ثم صل ركعتين ثم ادع بهذه الدعوات.

قال ابن حنيف: فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضر قط.

- وأخرجه الطبراني أيضاً من نفس هذا الطريق وب نفس هذا اللفظ وتلك القصة فى المعجم الصغير ١ / ١٨٣، ١٨٤ ثم قال: لم يروه عن روح بن القاسم إلا شبيب بن سعيد أبو سعيد المكى، وهو ثقة، وهو الذى يحدث عنه أحمد بن شبيب عن أبيه عن يونس ابن يزيد الأيلى، وقد روى هذا الحديث شعبة، عن أبي جعفر الخطمي، واسمه عمير بن يزيد وهو ثقة، تفرد به عثمان بن عمر بن فارس، عن شعبة.

=والحديث صحيح، وروى هذا الحديث عون بن عمار، عن روح بن القاسم، عن محمد بن المنكر، عن جابر - رضى الله عنه، وهم فيه عون بن عمار، والصواب: حديث شبيب بن سعيد قلت: يشتمل هذا الإسناد عند الترمذى على ما يأتى:

الراوى الأعلى: هو عثمان بن حنيف - صحابى جليل رضى الله عنه - وتحمله عنه: عمار بن خزيمة وهو ثقة انظر تهذيب التهذيب ٢٦١/٤ وقد تابعه أيضاً أبو أمامه بن سهل بن حنيف كما عند الطبرانى.

وتحملة عن عمار أبو جعفر الخطمى عمير بن يزيد بن عمير بن حبيب المدنى قال ابن معين والنسائى وابن نمير والعجلى وابن حبان: ثقة. تهذيب التهذيب ٤١٢/٤.

وتحملة عن أبى جعفر شعبة كما عند الترمذى وتابعه روح بن القاسم كما عند الطبرانى وحماد بن سلمة كما عند الإمام أحمد بن حنبل والثلاثة ثقات.

وتحملة عن شعبة عثمان بن عمر كما عند الترمذى، وروح بن القاسم كما عند الإمام أحمد.

وتحملة عن روح بن القاسم ثلاثة شبيب بن سعيد الحبطى أبو سعيد البصرى كما عند الطبرانى والإمام أحمد بن حنبل كما فى مسنده، وعون بن عمار كما عند الحاكم وتحمله عن حماد بن سلمة مؤمل كما عند الإمام أحمد.

أما عثمان بن عمر فتحمله عنه سبعة وهم: عبد بن حميد، العباس الدورى وعنه الحاكم، ومحمود بن غيلان وعنه الترمذى، وأحمد بن منصور بن سيار وعنه ابن ماجه، ومحمد بن بشار وأبو موسى وعنه ابن خزيمة، والإمام أحمد كما فى المسند.

وأما شبيب بن سعيد فعنه ابنه أحمد كما عند الحاكم، وعبد الله بن وهب وعن ابن وهب أصبغ بن الفرج وعنه الطبرانى.

وأما عون بن عمار فعنه العباس الدورى وعنه الحاكم.

والحديث صحيح جميع رواة إسناده ثقات لكن حديث الطبرانى والذى فيه زيادة وهى قصة الرجل مع عثمان بن عفان - رضى الله عنه وتوسله به ﷺ فقد انفرد بهذه القصة شبيب بن سعيد المكى وهو كما قال الحافظ ابن حجر: وثقه ابن المدينى، وأبو زرعة، وأبو حاتم، والنسائى، والدارقطنى، والذهلى. وقال ابن عدى: عنده نسخة عن يونس عن الزهرى مستقيمة وروى عنه ابن وهب أحاديث مناكير، فكأنه لما قدم إلى مصر حدث من حفظه فغلط، وإذا حدث عنه ابنه أحمد فكأنه شبيب آخر لأنه وجود عنه. وقال ابن حجر: =

= أخرج البخارى من رواية ابنه عن يونس أحاديث، ولم يخرج من روايته عن غير يونس، ولا من رواية ابن وهب عنه شيئاً، وروى له النسائ وأبو داود فى الناسخ والمنسوخ. أ هـ هدى السارى ص: ٤٢٩.

وقال الذهبى فى الميزان: صدوق يغرب حدث عنه ابن وهب بمناكير. ميزان الاعتدال ٢٦٢/٢.

قلت: هو ثقة فيما رواه عنه ابنه أحمد عن أبيه شبيب عن يونس بن يزيد، ضعيف فيما سوى ذلك فيحتاج إلى متابع لأن ضعفه قريب محتمل، والرواية هنا عند الطبرائى من طريق ابن وهب عن شبيب عن غير يونس، فهذه القصة فيها ضعف، ولا تجبر بمتابعة أحمد بن شبيب كما عند الحاكم لأن رواية أحمد لم تورد هذه القصة فانفرد بها ابن وهب عن شبيب فهي ضعيفة لكن أحب أن أنبه على أن هذا الضعف ليس شديداً وإنما هو قريب محتمل لا كما يزعم الألبانى أنها تصل إلى درجة النكارة، ولا أنه اختلف على شبيب فيها، ولا أنها خالف بها الثقات، وذلك لأن شبيب روى هذه القصة زيادة على الحديث وهو ثقة فيه ضعف قريب، فالرواة الثقات لم يذكروها وفى نفس الوقت لم تتعارض مع ما روه، وإنما أضافت شيئاً جديداً من رآه ثقة فيه ضعف فليست بشاذة لعدم معارضتها فإن الراوى قد يحفظ ما لا يحفظه غيره، وأيضاً الرواة لم ينكروا هذه القصة، فلم نر أحداً من حفاظ الحديث ونقاده الكبار أنكروا وخاصة أنها تدرج تحت عموم مفهوم آية التوسل فى سورة المائدة هكذا تعامل معها العلماء بل أخذ بها الكثير منهم وتوسلوا بذات المصطفى ﷺ بعد انتقاله وأجيبوا فيما طلبوه وهكذا حتى الصحابة والتابعين وجهابذة الحديث عبر القرون حتى جاء فى آخر الزمان رجل مغرور معجب بنفسه رمى غيره ممن خالفه فى رأيه بقصر الباع فى علم الحديث الشريف وجعل نفسه بحراً فيه، فنعوذ بالله من العجب والغرور.

قال الحافظ السيوطى فى شرح نظم الدرر المقبول ما تلقاه العلماء بالقبول وإن لم يكن له إسناد صحيح فى ما ذكره طائفة منهم ابن عبد البر ومثله بحديث جابر رضى الله عنه الدينار أربعة وعشرون قيراطاً، أو اشتهر عند أئمة الحديث بغير تكثير منهم فيما ذكره الأستاذ أبو اسحاق الإسفاريينى وابن فورك كحديث فى الرقة ربع العشر وحديث لا وصية لوارث، أو وافق آية من القرآن أو بعض أصول الشريعة حيث لم يكن فى سنده كذاب وقال الحافظ السخاوى: إذا تلتقت الأمة الحديث بالقبول يعمل به على الصحيح حيث أنه ينزل منزلة المتواتر فى أنه ينسخ المقطوع به ولهذا قال الشافعى رحمه الله: حديث لا وصية =

أولاً: تعريف التوسل:

التوسل في اللغة: هو المنزلة والدرجة والقربة، يقال: وسّل فلان إلى الله وسيلة إذا عمل عملاً تقرب به إليه.

والواسل: هو الراغب إلى الله تعالى. قال لبيد:

أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم . . بل كل ذي رأى إلى الله واسل

وتوسل إليه بوسيلة؛ إذا تقرب إليه بعمل، وتوسل إليه بكذا: تقرب إليه بحرمة آصرة تعطف عليه.

قال الجوهري: الوسيلة ما يتقرب به إلى الغير وقال ابن الأثير: هي في الأصل ما يتوصل به إلى الشيء ويتقرب به.

= لوارث لا يثبت به أهل العلم بالحديث ولكن العامة تلقته بالقبول وعملوا به حتى جعلوه ناسخاً لآية لا وصية لوارث وقال العلامة ابن مرعي الشبرخيتي المالكي في شرح الأربعين النووية: ومحل كونه لا يعمل بالضعيف في الأحكام ما لم يكن تلقته الناس بالقبول فإن كان كذلك تعين وضار حجة يعمل به في الأحكام وغيرها كما قال الشافعي رحمه الله. - انظر كتاب التحفة المرضية في حل بعض المشكلات الحديثية للمحدث القاضي حسين بن محسن الأنصاري اليماني ص ١٧٨ ، ١٧٩ وهو مطبوع في نهاية المعجم الصغير للطبراني.

- كما أخرج هذا الحديث أيضاً أبو بكر بن أبي خيثمة في تاريخه حيث قال: حدثنا مسلم ابن إبراهيم، حدثنا حماد بن سلمة، قال: حدثنا أبو جعفر الخطمي - به وزاد في آخره بعد "وشفع نببي في رد بصرى" وإن كانت حاجة فافعل مثل ذلك".

فهذه الزيادة زيادة ثقة وهي مقبولة بشرط ألا تخالف ما رواه الثقات يعني أنها إذا أخذنا بها رددنا ما رواه الثقات أو إذا أخذنا ما رواه الثقات رددنا الأخذ بها لأنها حينئذ تكون شاذة وهذا الشرط متوفر هنا لأن الأخذ بها لا يرد الحديث فهي لا تنفي شيئاً يثبت به الحديث ولا تثبت شيئاً ينفيه الحديث فإذا أمكن الجمع فلا شذوذ فالحديث يثبت التوسل برسول الله ﷺ مطلقاً وهي أيضاً تثبت ذلك والله أعلم.

والوسيلة هي التي يتوصل بها إلى تحصيل مقصود، قال تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾^(١).

ووسل فلان إلى ربه وسيلة، وتوسل إليه بوسيلة أى تقرب إليه بعمل.
وقال الراغب الأصفهاني: الوسيلة: التوصل إلى الشيء برغبة، وهي أخص من الوصيعة، لتضمنها لمعنى الرغبة، قال تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾^(٢).
والتوسل اصطلاحاً:

قال د/ عيسى الحميري: التوسل اصطلاحاً: هو جعل الشيء الذي له عند الله قدر ومنزلة وسيلة لإجابة الدعاء. وهو أيضاً: تجاهل تقى لقبول أعماله المبذولة والتماس رجائها من الله سبحانه بأعمال مقبولة لذوات موصولة.
قلت: يمكن أن يقال: هو تقديم محبوب إلى الله سبحانه وتعالى بين يدي طلب العبد من ربه رجاء قبول هذا الطلب.

وقال د/ عيسى: الوسيلة هي طريق الوصول إلى المأمول، أو هي قنطرة موضوعة لمعان مشروعة أو هي ظواهر ملموسة لمعان نفيسة محسوسة، أو هي سبل مشروعة لمطالب مخصوصة.

والمعنى: أن المتوسل عمل أعمالاً صالحة وجهل حقيقة قبولها عند الله فالتمس رجاءها من فضل الله في قبول عمل، أو زاد في التواضع والانكسار لمولاه فتمس رجاءها من أعمال مقبولة لذوات مقربة موصولة أى بالنبیین والمرسلين وعباد الله الصالحين كما فعل سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين توسل بالعباس لقربه من طاهر الأنفاس سيدنا رسول الله ﷺ ولشبهة العباس ومنزلته من رسول الله ﷺ مع

(١) ، (٢) سورة المائدة الآية / ٣٥.

انظر الكتب الآتية : لسان العرب لابن منظور ١٥ / ٣٠١ ، المعجم الوسيط ٢ / ١٠٣٢ ، وتاج العروس ٨ / ١٥٤ ، النهاية في غريب الحديث ٥ / ١٨٥.

تحقق مراد الوسيلة بتوسل بلال بن الحارث فما هو إلا إظهار خشية بصور متعددة لاستدراك رحمة من الله سبحانه^(١).

(١) التأمل في حقيقة التوسل ص: ١١، وما بعدها.

ثانياً: شرح الآيات القرآنية:

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾.

تكلم علماء الأمة سلفاً وخلفاً في الوسيلة واتفقت أقوالهم على أنها هي: القربة إلى الله تعالى.

وروى هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأبو وائل ومجاهد وقتادة والحسن وعطاء^(١) لكنهم اختلفوا في نوعية هذه القربة.

فذهب بعضهم أن معنى القربة: هي الطاعات والأعمال الصالحة التي يحبها الله سبحانه وتعالى فقط.

وذهب آخرون: إلى أنها هي كل ما يحبه الله سبحانه وتعالى من اسم أو صفة أو فعل أو عمل صالح أو ذوات فاضلة أنبياء كانوا أو أولياء أحياء كانوا أو منتقلين، وقالوا بأن الآية الكريمة جاءت فيها الوسيلة على إطلاقها، ولم يرد في السنة المطهرة ما يفيد تقييد هذا الإطلاق أو تخصيص هذا العموم، فيمكن أن يقال: الوسيلة: هي كل ما يحبه الله سبحانه ومن يحبه الله - ويجوز أن يتقرب به إلى الله عز وجل.

قال الزمخشري: هي كل ما يتوسل به، أي يتقرب من قرابة أو صنعة أو غير ذلك^(٢).

وأخرج عبد بن حميد والفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ القربة أي تقربوا إلى الله بطاعته والعمل بما يرضيه.

وأخرج عبد بن حميد عن أبي وائل قال: "الوسيلة" في الإيمان.

(١) تفسير ابن كثير ٥٣/٢.

(٢) تفسير الكشاف ٣٣٦/١.

وأخرج الطستى وابن الأثير في الوقف والابتداء عن ابن عباس، أن نافع الأزرق قال له: أخبرني عن قوله عز وجل: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ قال: الحاجة. قال وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم. أما سمعت عنبرة وهو يقول:

إن الرجال لهم إليك وسيلة . . . إن يأخذوك تكللى وتخصبى^(١)

أخرج الحاكم في المستدرک قال: حدثنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب الشيباني^(٢)، حدثنا محمد بن عبد الوهاب^(٣)، حدثنا محاضر بن المورع^(٤)، حدثنا الأعمش^(٥)، عن أبي وائل^(٦)، عن حذيفة^(٧) أنه سمع قارئاً يقرأ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ قال: القربة، ثم قال لقد علم المحفوظون من أصحاب محمد ﷺ أن ابن أم عبد من أقربهم إلى الله وسيلة^(٨).

وصححه الحاكم وأقره الذهبي.

قلت: هذا إسناد حسن: رواه كلهم ثقات ما عدا محاضر ابن المورع ذكره ابن حبان في الثقات وقال أبو حاتم ليس بالمتين يكتب حديثه، وقال أحمد لم يكن من أصحاب الحديث كان مغفلاً جداً، وقال الذهبي: روى عنه عباس والصغاني وخلق، مات ٢٠٦ هـ وله في صحيح مسلم حديث واحد، وقال النسائي: ليس به بأس. قلت:

(١) الدر المنثور ٢/٤٩٥.

(٢) هو ابن الأخرم ثقة حجة سير النبلاء ١٥/٤٦٦.

(٣) محمد بن عبد الوهاب الفراء ثقة مأمون سير النبلاء ١٢/٦٠٦.

(٤) الثقات لابن حبان ٧/٥١٣، الجرح والتعديل ٨/٤٣٧، ميزان الاعتدال ٣/٤٤١.

(٥) الأعمش: ثقة.

(٦) أبو وائل: شقيق ابن سلمة الأسدي قال ابن معين: ثقة لا يسئل عن مثله. تهذيب التهذيب

٢/٥١٣.

(٧) حذيفة صحابي جليل.

(٨) المستدرک: كتاب التفسير سورة المائدة جـ ٢/ ٣٤١ رقم ٣٢١٦.

أخرج له مسلم في صحيحه، وقال النسائي: ليس به بأس، وذكره ابن حبان في الثقات فهو صدوق فالحديث حسن.

وروى الطبري عن ابن زيد في قوله ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ قال: المحبة، تحببوا إلى الله، وقرأ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾^(١).

وقال أبو بكر عبد الرحمن بن مخيون: والحاصل أن الوسيلة: السبب والقربة أي كل ما يتقرب به.

وقال قوم: في الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾.

الأمر بالتقوى للعمل، والوسيلة: الذوات الشريفة منعاً من التكرار، لأن التقوى هي فعل المأمورات وترك المنهيات، فإذا فسرنا ابتغاء الوسيلة بالأعمال كان تأكيداً لما سبق من الأمر بالتقوى فيكون مكرراً، وإذا أريد به التوسل بالذوات الفاضلة يكون تأسيساً والتأسيس خير من التأكيد^(٢) وهو أي التأسيس هو ذكر معنى جديد غير الذي سبق وهذا المعنى هو الجدير بالاعتبار لأنه الأليق بالقول الفصيح، كما أن هذا يتفق وعموم الآية. أما قصرها أي الوسيلة على الأعمال الصالحة فقط ونفى ما عداها من الذوات الصالحة فهذا تخصيص لا دليل عليه وهو تحكم وشذوذ لا يقبله كل ذي عقل.

فعلى هذا يجوز التوسل بالله عز وجل أو باسم من أسمائه أو صفة من صفاته أو بعمل صالح أو بالأنبياء والأولياء أحياء أو منتقلين سواء بدعائهم أو بإيمانهم أو بذواتهم فهم أحباب الله عز وجل وكل ذلك داخل في عموم الآية الكريمة، ولا يخرجهم إلا نص يخصصها، وهيئات.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا * قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ

(١) سورة الإسراء الآية / ٥٧.

(٢) انظر سهام الموحدين ص: ٢٢، التأمل في حقيقة التوسل ص: ٩٩، ١٠٠، النفحات الجودية

أ. د جودة المهدي ص: ٢٢٢، سعادة الدارين ١/ ٢٤٤، صلح الاخوان ص: ٤٥.

الضَّرَّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿١﴾.

يقول العلامة الشيخ المحدث عبد الله بن الصديق الغماري - رحمه الله - في رده على منكرى التوسل بالذوات الصالحة: من الآية الظاهرة الدالة للتوبيخ لأولئك الذين جعلوا لهم آلهة من دون الله، ونظروا إليهم نظر تقرب ووسيلة فقالوا: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ (٢) ثم قال رحمه الله: وقد أخطأ من زعم أن هذه الآية تعم المؤمنين في توسلهم بالأنبياء، وأصحاب هذا القول جانبهم الصواب، حيث إنهم جعلوا النص الخاص عاماً عموماً مطلقاً ويرد عليهم من عدة وجوه:

الأول: أن آية الإسراء نزلت في عباد الجن كما في صحيح البخاري عن ابن مسعود في هذه الآية الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة قال: ناس من الجن يُعبدون فأسلموا" (٣) فيجب أن تقصر عليهم ولا تعم غيرهم، لأن الفعل الذي خوطبوا به وهو "ادعوا" مثبت، والفعل المثبت ليس بعام.

والمشكلة التي أصيب بها المعترضون أنهم ينزلون الآيات التي نزلت في المشركين على المسلمين وهذا خطأ فاحش.

الثاني: لو قلنا بأنه عام - أي الخطاب - بناء على قول أبي عبد الله البصري المعتزلي: إن قول القائل "افعلوا" يحمل على الاستغراق، فتكون الآية عامة، ومعنى عمومها على هذا أنها تشمل عباد الجن وغيرهم من المشركين كعباد الملائكة والأصنام، لكنها لا تشمل المسلمين الذين يسألون الله بأحبابه لأن الفعل لا يصلح أن يكون خطاباً لهم لا في اللغة ولا في الشرع.

(١) سورة الإسراء الآيات/٥٥ - ٥٧.

(٢) سورة الزمر الآية/٣.

(٣) البخاري: التفسير - سورة الإسراء ٨/٢٥٠ رقم ٤٧١٥، مسلم: التفسير جـ ٤/٢٣٢١

الثالث: إن معنى قوله: ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ اسألوهم واطلبوا منهم، وارغبوا إليهم، وهذا لا يوجد في المتوسل به ولا ينطبق عليه لأن المتوسل لا يسأله ولكنه يسأل الله به ولا يرغب إليه ولكن يرغب إلى الله به.

الرابع: لا خلاف أن مفعولى "يدعون" من قوله "يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة" محذوفان فلا يجوز أن يكون التقدير. أولئك الذين يدعونه وسيلة بالمعنى الذي نتكلم عليه، لأن قوله: "زعمتم من دونه" يمنع هذا التقدير، فتعين أن يكون التقدير "يدعونهم آلهة" كما قدره الحافظ ابن حجر رحمه الله وهذا القول الذي يؤيده صدر الآية.

أقول - أى الغمارى: وبهذا ظهر أن الآية توبيخ لأهل وصف معلوم "الكفار" وليس فيها استدلال للقائل بالعموم.

قال الحافظ ابن حجر: استمر الإِس الذين كانوا يعبدون الجن، والجن لا يرضون بذلك لكونهم أسلموا وهم الذين صاروا يبتغون إلى ربهم الوسيلة^(١). هذا هو المعتمد في تفسير هذه الآية، بل إن أظهر تفسير لها ما رواه الشيخان عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كان نفر من الإِس يعبدون نفراً من الجن فأسلم نفر من الجن، فاستمسك الآخرون بعبادتهم.

وهناك وجه آخر فيه الدلالة القطعية على أن التوبيخ في الآية موجه إلى المشركين، وإن اختلفت أنواع شركهم في معبوداتهم، وأن التوسل إلى الله من تلك المعبودات والتقرب بها إلى الله أمر جار حيث كان آخر الآية يدل على جواز التوسل. قال البغوى في تفسيره: قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ يعنى الذين يدعونهم المشركون أنهم آلهة يعبدونهم، قال ابن عباس ومجاهد: وهم عيسى وأمه وعزير والملائكة والشمس والقمر والنجوم "يبتغون" أى يطلبون إلى

ربهم الوسيلة أى القرية، وقيل الوسيلة: الدرجة العليا: أى يتضرعون إلى الله فى طلب الدرجة العليا.

وقيل الوسيلة: كل ما يتقرب به إلى الله تعالى: وقوله: أيهم أقرب" معناه ينظرون أيهم أقرب إلى الله فيتوسلون به. وقال الزجاج: أيهم أقرب يبتغى الوسيلة إلى الله تعالى، ويتقرب إليه بالعمل الصالح^(١).

وقال الإمام الآلوسى فى تفسيره: روح المعانى: جوز الحوفى^(٢) والزجاج أن يكون "أيهم أقرب" مبتدأ وخبراً والجملة فى محل نصب بينظرون، أى يفكرون والمعنى: ينظرون أيهم أقرب فيتوسلون به^(٣).

[وكان المراد يتوسلون بدعائه وإلا ففى التوسل بالذوات ما فيه]^(٤). وقد نبه جمع من المحققين إلى تصرف ابنه - أى ابن الآلوسى - واسمه نعمان شكرى الآلوسى فى بعض نصوص الكتاب، منهم الإمام محمد زاهد الكوثرى - رحمه الله تعالى - فى كتابه تكملة الرد على نونية ابن القيم" فقد قال الكوثرى رحمه الله: قاتل الله المادة ما دخلت فى شئ إلا أفسدته، وهو - أى نعمان الآلوسى - ليس بأمين على طبع تفسير والده، ولو قابله أحدهم بالنسخة المحفوظة اليوم بمكتبة راغب باشا باسطنبول - وهى النسخة التى كان المؤلف أهداها إلى السلطان عبد المجيد خان - لوجد ما يطمئن إليه - نسأل الله السلامة^(٥).

قال د/ عيسى الحميرى: بعد نقل الكلام السابق:

(١) معالم التنزيل للبيغوى ٣ / ٥٠٣.

(٢) الحوفى: هو أبو الحسن على بن إبراهيم بن سعيد الحوفى له إعراب القرآن فى عشر مجلدات.

انظر سير النبلاء ١٧ / ٥٢١.

(٣) روح المعانى للآلوسى ١٥ / ٩٩.

(٤) ما بين المعقوفتين ليس من كلام الآلوسى بل من كلام ابنه.

(٥) السيف الصقيل ص: ١٦٥.

وسيتضح لك أيها القارئ الكريم الأمر جلياً عندما نقف على تفسير الإمام الآلوسی لقوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ وتقارنه بهذه الزيادة المنكرة. فقد قال في تفسيره لسورة النازعات: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾^(١) بعد أن ذكر بعض الأقوال في تفسيرها:

وقيل: هي إقسام بالنفوس الفاضلة حال المفارقة، لأبدانها بالموت، فإنها تنزع عن الأبدان غرقاً: أي نزعاً شديداً، من أغرق النازع في القوس إذا بلغ غاية المد حتى ينتهي إلى النصل العسر مفارقتها إياها حيث ألقته، وكان مطية لها لاكتساب الخير، ومظنة لزيادة، فتنشط شوقاً إلى عالم الملكوت وتسبح به فتسبق به إلى حظائر القدس، فتصير لشرفها وقوتها من المديرات أي: ملحقة بالملائكة، أو تصلح هي لأن تكون مدبرة، كما قال الإمام: إنها بعد المفارقة قد تظهر لها آثار وأحوال في هذا العالم، فقد يرى المرء شيخه بعد موته فيرشده لما يهمله، وقد نقل عن جالينوس أنه مرض مرضاً عجز عن علاجه الحكماء، فوصف له في منامه علاجه فاستيقظ وفعله فأفاق. وقد ذكره الغزالي. ولذا قيل - وليس هذا بحديث كما توهم - إذا تحيرتم في الأمور فاستعينوا بأصحاب القبور، أي أصحاب النفوس الفاضلة المتوفين، ولا شك في أنه يحصل لزائرهم مدد روحاني ببركتهم، وكثيراً ما تنحل عقد الأمور بأنامل التوسل إلى الله تعالى بحرمتهم

إلى أن قال: لا ينبغي التوقف في أن الله تعالى يكرم من يشاء من أوليائه بعد الموت كما يكرمه قبله بما شاء، فيبرئ الله سبحانه المريض، وينقذ الغريق، وينصر على العدو، وينزل الغيث وكيث وكيث كرامة له، وربما يظهر عز وجل من يشبهه صورة، فتفعل ما سئل الله تعالى بحرمة مما لا إثم فيه استجابة للسائل^(٢). أ.هـ.

(١) سورة النازعات من الآيات / ١ - ٣.

(٢) روح المعاني للآلوسی ٢٩ / ٢٤ - ٢٥، انظر كتاب التأمل في التوسل ص: ١٠٦.

فقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ يقول أحد الأجلاء في تفسيرها الوسيلة على ما فسروه هي التوصل والتقرب، وربما استعملت بمعنى ما به التوصل والتقرب ولعله هو الأنسب بالسياق نظراً إلى التعقيب بقوله "أيهم أقرب". والمعنى والله أعلم: أولئك الذين يدعونهم المشركون من الملائكة والجن والإنس يطلبون ما يتقربون به إلى ربهم، يستعملون أيهم أقرب حتى يسلكوا سبيله ويقتدوا بأعماله ليتقربوا إليه تعالى كتقربه "ويرجون رحمته" من كل ما يستمدون به في وجودهم "ويخافون عذابه" فيطيعونه ولا يعصونه "إن عذاب ربك كان محذوراً" يجب التحرز منه.

والتوسل إلى الله تعالى ببعض المقربين إليه - على ما في الآية الكريمة "وابتغوا إليه الوسيلة" غير ما يرومه المشركون من الوثنيين، فإنهم يتوسلون إلى الله ويتقربون بالملائكة الكرام والجن والأولياء من الأنس فيتركون عبادته تعالى ولا يرجونه ولا يخافونه، وإنما يعبدون الوسيلة ويرجون رحمتها، ويخافون سخطها، ثم يتوسلون إلى هؤلاء الأرباب والآلهة بالأصنام والتماثيل، فيتركونهم ويعبدون الأصنام، ويتقربون إليهم بالقرايين والذبائح.

وبالجملة يتركون التقرب إلى الله تعالى ببعض عباده أو أصنام لبعض خلقه، ثم لا يعبدون إلا الوسيلة نفسها مستقلة بذلك، ويرجونها ويخافونها مستقلة بذلك من دون الله، فيشركون بإعطاء الاستقلال لها في الربوبية والعبادة.

والمراد بأولئك الذين يدعون، إن كان هم الملائكة الكرام والصلحاء المقربين من الجن والأنبياء والأولياء من الأنس، كان المراد من ابتغائهم الوسيلة ورجاء الرحمة وخوف العذاب ظاهره المتبادر.

وإن كان المراد به ما هو أعم من ذلك حتى يشمل من كانوا يعبدونه من مردة الشياطين وفسقة الإنس كفرعون ونمرود وغيرهما، كان المراد بابتغائهم الوسيلة إليه

تَعْنَى مَا ذَكَرَ مِنْ خُضُوعِهِمْ وَسُجُودِهِمْ وَتَسْبِيحِهِمُ التَّكْوِينِي، وَكَذَا الْمُرَادُ مِنْ رَجَائِهِمْ وَخَوْفِهِمْ مَا لَذَوَاتِهِمْ^(١).

(١) التأمّل في التوسل ص: ١٠٧ وما بعدها نقلاً عن كتاب الميزان في تفسير القرآن جـ ٧/

١٢٧ - ١٢٨ بتصرف يسير.

ثالثاً الأحاديث النبوية:

تبين من خلال آية المائدة وآيات سورة الإسراء

أن الله سبحانه وتعالى أطلق هذه الآيات، ولم يرد في القرآن الكريم ما يخص هذا العموم وكذلك لم يرد في السنة بل الذي ورد في السنة يؤيد هذا العموم أيضاً فنقول بناء على ذلك أن التوسل إلى الله عز وجل جائز بل مستحب بكل ما ومن يحبه الله عز وجل".

وجمهور علماء الأمة قد أجمعوا وتضافرت أقوالهم وأفعالهم على ذلك إلا فئة قليلة جداً لا تكاد تذكر بجانب ملايين علماء الأمة في شتى المذاهب والبلاد والأقطار، وهذه الفئة القليلة اعترضها على شيئين اثنين فقط وهما:

١ - التوسل بالذوات الفاضلة.

٢ - التوسل بالصالحين بعد انتقالهم.

وهذه هي نقطة الخلاف الرئيسية والتي بسببها مزقت الأمة، وتفرقت وتصدعت. راحت هذه الفئة التي جاءت في آخر الزمان حيث إن أول من تفوه بذلك ابن تيمية في القرن الثامن الهجري راحوا يتهمون من خالفهم بالوثنية والشرك والكفر بدون دليل على ما ذهبوا إليه مستنطقين النصوص ما لم تنطق مخالفين بذلك المعلم الأول وأستاذ الوجود ﷺ وصحابته وتابعيهم ومن بعدهم والأئمة الأربعة وأئمة الحديث وجهابذته والذين حفظ الله لنا بهم هذا الدين، وسنورد توضيح ذلك إن شاء الله من خلال سنة المصطفى ﷺ.

- فحديث ابن عمر - رضي الله عنهما - وتمثله بشعر أبي طالب وقد ورد ذلك

في قصيدة طويلة مدح فيها أبو طالب رسول الله ﷺ قال أصحاب السير:

وسبب هذه القصيدة أن قريشاً في الجاهلية أصابهم قحط فاستسقى لهم أبو طالب متوسلاً بالنبي ﷺ وكان صغيراً فاغدودق عليهم السحاب بالمطر فقال أبو طالب هذه القصيدة^(١).

وابن هشام في السيرة ذكر هذه القصيدة قالها أبو طالب عندما خاف على رسول الله ﷺ من دهماء العرب وأنه غير مسلم رسول الله ﷺ لهم أبداً حتى يهلك من دونه^(٢).

قلت: ولا تعارض فقد يكون أن أبا طالب توسل برسول الله ﷺ وهو غلام صغير فنزل المطر فعظم شأن ابن أخيه في قلبه مضافاً إلى ما عرفه عنه من بحيرى الراهب سابقاً في شأنه، فلما جاءت الرسالة، وتكاتفت ضده قريش للقضاء عليه قال أبو طالب هذه القصيدة مذكراً إياهم بما حدث لهم على يديه من نزول الغيث بسببه وقاطعاً الأمل عندهم في القضاء عليه.

وفى هذا البيت قال أبو طالب: وأبيض يستسقى الغمام بوجهه" وهذا توسل صريح بذات المصطفى ﷺ وليس في ذلك ذرة شك، ولم ينكره ﷺ على عمه بل أقره عليه وأقره من ابن عمر رضي الله عنهما بل كان يحب أن يسمعه حيث عندما جاء الأعرابي فقال: يا رسول الله. أتيناك وما لنا بغير ينط^(٣) ولا صبي يغط^(٤) ثم قال:

وليس لنا إلا إليك فرارنا . . . وأين فرار الناس إلا إلى الرسل

فقام ﷺ يجر رداءه حتى صعد المنبر فقال: اللهم اسقنا ... الحديث وفى آخره: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ثم قال: لله در أبى طالب لو كان حياً قرنا عيناه من ينشدنا قوله، فقام على بن أبى طالب، فقال: يا رسول الله. كأنك أردت

(١) وقد ذكر نحو ذلك السهيلي أورده عنه الحافظ ابن حجر فى الفتح ٥٧٦/٢.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١٦٥/١.

(٣) ينط: الإطيط صوت البعير المثقل..

(٤) والغطيط صوت النائم كذلك وكنى بذلك عن شدة الجوع.

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه .: ثمال^(١) اليتامى عصمة^(٢) للأرامل^(٣)
إلى آخر الأبيات فقال ﷺ: إن يك شاعر يحسن فقد أحسنت^(٤).

قلت: هذا حديث - أقصد حديث ابن عمر - صحيح وصريح في التوسل
بذات النبي ﷺ لقوله فيه "بوجهه" حيث يعبر به عن الذات كما في حديث: من قطع
سدره في فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم عبثاً وظلماً بغير حق يكون له فيها
صوب الله رأسه في النار^(٥) حيث عبر عن الكل بالجزء.

وأما حديث توسل عمر بالعباس رضي الله عنهم أجمعين.

قال الحافظ ابن حجر: يستفاد من هذا الحديث الاستشفاع بأهل الخير والصلاح
وأهل بيت النبوة، وفيه فضل العباس وفضل عمر لتواضعه للعباس ومعرفته بحقه^(٦) أ
هـ.

قلت: هناك شيء مهم جداً - يجب أن يتنبه له الناس جميعاً ألا وهو أن الله
سبحانه يعامل عباده المؤمنين من باب الفضل لا من باب العدل، ولا حرج على فضل
الله عز وجل فهو من باب فضله يجازى السيئة بسيئة واحدة ويكافئ على الحسنة
عشرأً أو يزيد.

(١) ثمال: بالكسر الملجأ والغياث، وقيل هو المطعم في الشدة. النهاية ٢٢٢/١.

(٢) عصمة للأرامل: أي يمنعهم من الضياع والحاجة أو يمنعهم مما يضرهم. النهاية ٢٤٩/٣.

(٣) الأرامل: المساكين من رجال ونساء، يقال لكل واحد من الفريقين على انفراده أرمل، وهو
بالنساء أخص، وأكثر استعماله. فالأرمل: هو الذي ماتت زوجته، والأرملة: التي مات زوجها
سواء كان غنيين أو فقيرين. النهاية ٢٦٦/٢.

(٤) أخرجه البيهقي: في دلائل النبوة ٦/ ١٤١ بسند فيه ضعف، وأورده ابن حجر في الفتح وعقبه
بقوله: وإن كان فيه ضعف لكنه يصلح للمتابعة: أي يتقوى بغيره ويتعاوض بالصحيح. الفتح
٥٧٥/٢.

(٥) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب - باب في قطع السدر جـ ٤/ ٣٦١ رقم ٥٢٣٩. والبيهقي: في
الكبرى: كتاب المزارعة - باب ما جاء في قطع السدر ٦/ ٢٣٠ رقم ١١٧٥٨ وما بعده.

(٦) فتح الباري ٢/ ٥٧٧.

ومن باب فضله يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، ومن باب فضله أن من أتى بملء الأرض خطايا ثم لقي الله وهو لا يشرك به شيئاً لأعطاه الله بملئها مغفرة ولا يبالي، ومن فعل من الذنوب ما فعل ثم تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً بدل الله سيئاته حسنات إلى غير ذلك من أشياء لا تعد ولا تحصر، فهذا كله على ماذا يدل؟ يدل على أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يرحم الناس من أوسع أبواب الرحمة.

لكن للأسف نجد بعض الناس يريد أن يحجر على هذه الرحمة ويضيق أبوابها، ضيق الله عليهم في الدنيا والآخرة، ويا ليتهم ذهبوا فيما ذهبوا إليه عن دليل أو حجة، وإنما كل ما بنوا عليه أمرهم هو القسم المتروك في الشرع واستدلوا بالترك على التحريم.

إن بنى إسرائيل تعنتوا وشددوا فشد الله عليهم، إذ لما أمرهم الله عز وجل بذبح بقرة لو أنهم امتثلوا الأمر وذبحوا أى بقرة لقضيت حاجتهم لأن الله سبحانه أطلق "بقرة" لكنهم تعنتوا وسألوا عن سننها وعن لونها وعن عملها مع أن الله عز وجل سكت عن هذه الأشياء في بادئ الأمر رحمة بهم.

فمن رحمته سبحانه أنه أمرنا بالتوسل إليه "مطلقاً" ولا يجوز لغير رسول الله ﷺ كائناً من كان أن يخصص نصاً فيه عموم، والذي يدخل فيه كل ما ومن يحبه الله يجوز التوسل به إلى الله.

فلا يجوز لشخص كائناً من كان أن يقسم التوسل حسب هواه ويقول هذا مشروع وهذا مبتدع وما برهانكم إن كنتم صادقين على حرمة ما سميتموه "توسل مبتدع".

دليلهم أن الرسول ﷺ ما فعل هذا النوع ولا الصحابة ولا التابعون.

قلت: ولا يصح هذا أن يكون دليلاً، ولا دلالة فيه على التحريم طالما أن الحرام في الشرع لا يكون حراماً إلا بنص يحرم فالحرام لا بد أن يكون منصوصاً عليه

بالتحريم أو النهي أو الأمر بالاجتناب أو بنفي لفظ الحل أو تعلق عليه عقوبة أو ذنب. قال تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾^(١).

هذا على فرض صحة كلامكم أن الرسول ﷺ وأصحابه والتابعين ومن بعدهم لم يفعلوه.

لكن للأسف كذبتكم في هذا الادعاء وافتريتم على الله كذباً فالثابت هو عكس كلامكم.

وسنبين في الصفحات القادمة ذلك إن شاء الله.

(١) سورة الأنعام من الآية/١١٩.

فائدة:

ألا فليعلم الناس جميعاً أن التوسل بالذوات الفاضلة لا يعنى ذلك عبادتهم من دون الله أو مع الله. كلا، وإنما المراد من جواز التوسل والتشفع والاستغاثة بهم أنهم أسباب ووسائل فقط لا أنهم هم الفاعلون استقلالاً من دون الله، فإن هذا عين الكفر، ولا يخطر هذا أبداً ببال جاهل فضلاً عن عالم، بل ليس هذا خاص بنوع الأموات، فإن الأحياء وغيرهم من الأسباب العادية كالقطع للسكين، والشبع للأكل، والرى للماء، والدفع للبس لو اعتقد أحد أنها فاعلة ذلك بنفسها استقلالاً عن الله عز وجل يكفر إجماعاً^(١).

فسيدنا عيسى عليه السلام أحيى الموتى، وأبرأ الأكمه والأبرص وأخبر الناس بما يأكلون وما يدخرون كل ذلك بإذن الله وحده لا شريك له، إذن فالفاعل الحقيقي هو الله عز وجل وحده لا شريك له وأما سيدنا عيسى فما هو إلا سبب أجرى الله على يديه هذه الآيات تنبيه:

يجب أن يعلم الناس جميعاً أن هناك الكثير من الألفاظ وردت في القرآن الكريم وفى السنة المطهرة لا تحمل على ظاهرها بالمعنى الحقيقي، وإنما لابد أن تحمل على المعنى المجازى أو السببى فقط.

فالعقيدة مفسورة في القلب أن الله عز وجل هو الإله الحق وأنه الفاعل الحقيقي المتصرف في هذا الكون كله، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا شئ معه سبحانه في هذا التصرف الحقيقي فهو النافع وهو الضار وهو المحيى وهو المميت، وهو المعطى وهو المانع وهو الشافى وهو الغنى وهو المغنى وهو الرحيم وهو الذي بيده الخلق والأمر، ولا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ولا حول ولا قوة إلا به سبحانه وتعالى.

(١) النفحات الجودية ص: ٢٢٥ بتصرف.

لكن قد ينسب الفعل للعبد باعتبار كسبه، أو لأنه كان سبباً فيه، فالطبيب لا يشفى وإنما ما هو إلا سبب في الشفاء.

سأل سيدنا إبراهيم عليه السلام ربه عز وجل قال: يارب ممن الداء؟ قال: منى. قال: وممن الدواء؟ قال منى. قال: فما الطبيب؟ قال: إن هو إلا عبد أجريت الشفاء على يديه.

وفى رواية أخرى: قال: فما الأطباء؟ قال يأخذون أرزاقهم من عبادي، ويسلونهم على بلأى حتى أتى بشفائي أو أعجل بقضائي.

أمثلة على ذلك قال تعالى: ﴿ أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) فمعناها أن الله عز وجل هو المنعم الحقيقي المتفضل بالنعمة

وبالنصر وغيره، ونحن نرى أحياناً المسلم ينادى أخاه قائلاً: يا مولانا فهل يعتقد جاهل أن قائل ذلك يقصد المعنى الحقيقي السابق ذكره أم أنه يقصد المعنى المجازي وأن هذا ليس فقط إلا من باب التوقير والاحترام والتواضع للعلماء.

وفى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ ﴾ (٢) فالله سبحانه وتعالى قد نسب الرزق للعبد

وأمره صراحة أن يرزق هؤلاء مع أنه الرازق في الحقيقة خلقاً وإيجاداً سبحانه وتعالى لا شريك له، إذن فلا بد أن يحمل المعنى على المجاز إذا أسند للعبد أو المعنى السببي أي كونوا سبباً في رزقهم، أوفارزقوهم مجازاً لا حقيقة، ومنه حديث "من استعملناه على عمل ورزقناه منا رزقاً فما أخذ بعد ذلك فهو غلول" (٣) أي كنا سبباً في رزقه.

(١) سورة البقرة من الآية/ ٢٨٦.

(٢) سورة النساء من الآية/ ٨.

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب الخراج باب في أرزاق العمال جـ ٣/ ١٣٤، رقم ٢٩٤٣ وابن خزيمة في صحيحه: كتاب الزكاة باب فرض الإمام للعامل على الصدقة رزقاً معلوماً جـ ٢/ ١١٤٠ رقم ٢٣٦٩، والبيهقي في الكبرى: كتاب قسم الفيء باب ما يكون للوالي جـ ٦/ ٥٧٨ رقم ١٣٠٢٠ بإسناد صحيح.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ (١) نسب سيدنا جبريل عليه السلام الهبة لنفسه وكان المفروض أن يكون السياق إنما أنا رسول ربك ليهب الله لك غلاماً لكنه نسبها لنفسه مجازاً أو سبباً أي لاكون سبباً لأن الواهب في الحقيقة إنما هو الله عز وجل وحده لا شريك له قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِئَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ (٢).

وقال تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ (٣) القميص لم يرد البصر لسيدنا يعقوب، وإنما الذي رده هو الله عز وجل والقميص سبب فقط.

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ (٤) فقد نسب الحق سبحانه وتعالى القرآن الكريم إلى سيدنا جبريل عليه السلام مع أنه عليه السلام ليس له في القرآن آية ولا كلمة بل ولا حرف فإسناد الله عز وجل القرآن الكريم إليه باعتبار كونه عليه السلام كان سبباً في إنزاله فقط على رسول الله ﷺ.

وقال تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ (٥) فالرجل من عوام المسلمين يقول ويجري على لسانه: زرعت الأرض كذا وكذا فهو ينسب الزرع لنفسه ومفطور في قلبه وكيانه كله أن الزارع حقيقة هو الله عز وجل، وما العبد إلا سبب فقط.

فالفاعل الحقيقي المتصرف هو الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له وما الخلق إلا سبب فقط، فالذي يروى هو الله والماء سبب، والذي يشبع هو الله والطعام سبب، والذي يعطى هو الله والعمل سبب والذي يشفى هو الله والطبيب سبب، والذي يميت هو الله والسم أو القتل أو الانتحار سبب والذي ينجح الطالب في الامتحان هو

(١) سورة مريم من الآية/ ١٩.

(٢) سورة الشورى الآية/ ٤٩.

(٣) سورة يوسف الآية/ ٩٣.

(٤) سورة التكوين الآية/ ١٩، ٢٠.

(٥) سورة الواقعة الآية/ ٦٤.

الله والمذاكرة سبب، والذي يرسل الطالب هو الله والإهمال سبب والذي يرحم هو الله والأتبياء والصالحون سبب، والذي يقضى حاجات الناس هو الله وتعاطى الأسباب سبب.

فالصحابه رضي الله عنهم والتابعون ومن بعدهم فهموا ذلك جيداً ومع ذلك كانوا يستشفون بشعر رسول الله ﷺ وبشرب ماء زمزم معتقدين أنها أسباب أجرى الله عز وجل حكمته فيها فصارت تنفع أخذها بإذن الله كما ورد أنهم كانوا يتقاتلون على شعره ﷺ وكانوا يرمقون ريقه أو نخامته فيدلكون بها جلودهم ووجوههم، وبعضهم شرب دم حجامته وبعضهم أخذ عرقه وبعضهم شرب بوله ﷺ كل ذلك وهم يعبدون إلهاً واحداً لا شريك له فلم يعتقدوا في تلك الأشياء نفعاً ولا ضرراً باستقلالها عن الله عز وجل. فما الذي يضيركم من هذا كله أيها المعترضون؟

قال الأستاذ محمد إبراهيم: فله الأمر جميعاً يعلم ما تكسب كل نفس ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١) قيل: ما مراد الله من خلقه؟ قيل: ما هم عليه. وقد اقتضت إرادة الله جل شأنه أن يكون ما يظهر في الوجود من سائر المكونات من شأنيين إلهيين أو من نظامين إلهيين أولهما: نظام عالم القدرة وثانيهما: نظام عالم الحكمة فمن عالم القدرة كل ما يظهر في الوجود بدون أسباب ووسائط كإنزال المائدة من السماء، أو إطفاء النار التي ألقى فيها سيدنا إبراهيم عليه السلام.

ومن عالم الحكمة: كل ما يظهر في الوجود من أسباب ووسائط كالولد عن الوالدين، والرزق عن السعي، والشفاء عن الدواء وهكذا. وأغلب ما يظهر في الوجود هو من عالم الحكمة، ويدرك هذا من جعل الخليفة في الأرض وإرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام، ومعلوم ضرورة أن الله على كل شيء قدير، ففي قدرته إدارة شئون الكائنات وإرشادهم إلى الصالح بدون خليفة ورسول، ولما غاب عن هذه الحقيقة

(١) سورة هود من الآية ٥٦.

الحكمة في الوجود طوائف من المسلمين كما غابوا عن معاينة الثمرات الحسنة والكرامات الظاهرة التي وقعت ولا تزال تقع لصالح هذه الأمة كما غابوا عن فطرة الإسلام وسماحته، وأنه دين النيات، وعدم التعنت وعدم الحرج كما غابوا عن المجهود الكبير الذي بذله فقهاء الأمة في استنباط الأحكام الشرعية وتفصيلها، لما غابت تلك الطوائف عن ذلك وغيره، عمدوا إلى إنكار قواعد شرعية وأحكام فقهية أجمع عليها الصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون، وسار على هذا الإجماع قرون متتابعة ورد في حقها أنها خير القرون، وانضم إلى هذا الإنكار من هذه الطوائف التهجم على أولياء الأمة واتهام محبيهم بأمر لم يصبح لها في عقائد المسلمين جميعاً وجود^(١).

نعود إلى حديث عمر - رضي الله عنه وتوسله بالعباس رضي الله عنهم أجمعين.

والذي يستفاد منه كما قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: استحباب الاستشفاع بأهل الخير والصلاح وأهل بيت النبوة قلت هكذا أطلقها الحافظ رحمه الله ولم يقيد بها بحياتهم فيستشفع بهم أحياء ومنتقلين - وفيه فضل العباس، وفضل عمر لتواضعه للعباس ومعرفته بحقه. أ هـ، وفيه جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل.

قال الألباني مستدلاً بهذا الحديث على المنع قال ما حاصله:

الكلام فيه شيء محذوف وتقديره في نظر المجيزين للتوسل بالذوات والأموات: "جاه" أو "منزلة" فيكون الكلام اللهم إنا كنا نتوسل إليك بجاه نبيك فتسقينا واليوم نتوسل إليك بجاه عم نبيك وتقديره في نظر المانعين: دعاء فيكون الكلام: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بدعاء نبيك فتسقينا واليوم نتوسل إليك بدعاء عم نبيك. ثم قال:

أما تقدير المجيزين فلا وجود له في السنة إطلاقاً وفي عمل الصحابة رضوان الله عليهم، أما الأمر الثاني فهو الذي تطفح به كتب السنة، والتي تبين بما لا يقبل

الجدال أو المماراة أن التوسل بالنبي ﷺ أو بالصالحين الذي كان عليه السلف الصالح هو أن يجيئ المتوسل إلى المتوسل به وعرضه حاله له وطلبه منه أن يدعو الله له ليحقق طلبه فيدعو فيستجيب الله تعالى^(١).

قلت: في كلامه تخصيص لما هو عام فورود كلمة التوسل هكذا مطلقة شملت كل محبوب لله فالتقدير في نظرنا على عمومته فيكون الكلام: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بجاه ومنزلة وحرمة ودعاء نبيك ﷺ فتسقينا واليوم نتوسل إليك بجاه ومنزلة وحرمة وقرابة ودعاء عم نبيك. أما هذه الأشياء وهي جاه ومنزلة وحرمة نبيك فهي ركيزة في قلوب المؤمنين فلا هي تنقطع بانتقال الرسول ﷺ ولا هي تنفك ولا تفارق قلوب المؤمنين الصادقين حتى بعد انتقالهم، ولا يوجد دليل واحد يمنع من دخول ذلك كله في معنى التوسل، وكذلك هذه الأشياء أيضاً في قلوب المؤمنين نحو آل بيت الحبيب المصطفى ﷺ.

وادعى الألباني أن الرسول ﷺ باشر الدعاء للضرير وهذا غير صحيح فالذي باشر الدعاء هو الضرير نفسه أما الرسول ﷺ فهو الذي عرفه كيف يدعو، مثله مثل رجل جاء لمن معه مفتاح حجرة مغلقة وقال له افتح لي الحجرة فلم يفتحها له ولكن قال: خذ هذا المفتاح وافتح به، فالذي باشر فتح الحجرة بنفسه الرجل والذي أعطاه المفتاح لم يفتح هو بنفسه فكذلك الرسول ﷺ لو دعا له لكان هذا خصوصية للضرير ولكنه ﷺ أراد ألا يحرم الأمة من هذا الخير فعلمه هذا الدعاء له وللأمة كلها إلى يوم القيامة.

قال الأستاذ محمود سعيد ممدوح: وليس فيه - أي في حديث توسل عمر بالعباس رضي الله عنهما - ترك التوسل به ﷺ لعموم الأدلة، ولأن غاية ما فيه هو جواز ترك التوسل به، وفرق بين الجواز وغيره، على أن عمر بن الخطاب رضي الله

(١) التوسل أنواعه وأحكامه ص: ٥٦ - ٥٩.

عنه أراد بالتوسل بالعباس رضي الله عنه الإقتداء بالنبي ﷺ في تبجيل وإكرام العباس، وقد كان في الصحابة من هم أفضل من العباس^(١).

وقال العارف بالله سيدى أحمد الشافعى: لقد رجعنا إلى الكتاب العزيز فألفيناه ذكر الوسيلة "مطلقة في آية سورة المائدة وآية سورة الإسراء ولم نجد إلى علم تعيينها سبيلا فأمعنا النظر في السنة ليتبين لنا ما اختلفنا فيه مما نزل إلينا فوجدنا الوسيلة قد تكفلت بها السنة وبينتها خير بيان - أى على إطلاقها - وقررت اتساع دائرتها، فلقد أطلقت السنة الوسيلة على كل محبوب لله تعالى: من اسم أو صفة أو فعل أو عمل صالح أو نبي أو ولي أو ميت، فانجلى لنا أن ثبوت الوسيلة أمر قطعى لا ينكره إلا من زاغ قلبه وآثر دنياه على أخراه فعميت بصيرته فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى في الصدور^(٢). أ هـ.

أخرج الحاكم بسنده عن ابن عمر قال: استسقى عمر بن الخطاب عام الرمادة بالعباس بن عبد المطلب فقال: اللهم هذا عم نبيك نتوجه إليك به فاسقنا فما برحوا حتى سقاهم الله. قال: فخطب عمر الناس فقال: أيها الناس إن رسول الله ﷺ كان يرى للعباس ما يرى الولد لوالده يعظمه ويفخمه ويبر قسمه فاقتدوا أيها الناس برسول الله ﷺ في عمه العباس واتخذوه وسيلة إلى الله عز وجل فيما نزل بكم^(٣). قال الحافظ في الفتح:

وقد بين الزبير بن بكار في "الأنساب" صفة ما دعا به العباس في هذه الواقعة والوقت الذي وقع فيه ذلك، فأخرج بإسناد له أن العباس لما استسقى به عمر قال: اللهم لا ينزل بلاء إلا بذنب ولم يكشف إلا بتوبة، وقد توجه القوم بى لمكانى من

(١) رفع المنارة لتخريج أحاديث التوسل والزيارة ص/٩١.

(٢) كشف الغطاء عن أهل البلاء ص: ١٧٠.

(٣) المستدرک: کتاب معرفة الصحابة جـ ٣/٣٧٧ رقم ٥٤٣٨، وذكره ابن حجر في الفتح وعزاه

للزبير بن بكار، وابن عساكر في تاريخه من طريق الزبير بن بكار - به ص: ٢٦ / ٣٢٨.

نبيك، وهذه أيدينا إليك بالذنوب ونواصينا بالتوبة فاسقنا الغيث" فأرخت السماء مثل الجبال حتى أخصبت الأرض وعاش الناس^(١).

وفي رواية ابن عساكر: فقال عمر: اللهم أنا توجهنا إليك بعم نبيك وصنو أبيه" وفيها قول العباس: وقد توجه بى القوم إليك لمكانى من نبيك"^(٢).

وفي رواية: استسقى عمر بالعباس عام الرمادة فقال: إن هؤلاء عبادك وبنو عبادك وبنو إمائك أتوك راغبين متوسلين إليك بعم نبيك عليه الصلاة والسلام فاسقنا سقياً نافعاً تعم البلاد وتحيي العباد، اللهم إنا نستسقى، وقال ابن طاوس نستسقيك بعم نبيك ونستشفع إليك بشيبيته فسقوا^(٣)....

قال الألبانى: عدل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عن التوسل برسول الله ﷺ بعد انتقاله إلى التوسل بالعباس - رضي الله عنه - مع العلم بأن العباس مهما كان شأنه ومقامه فإنه لا يذكر أمام شأن النبي ﷺ ومقامه، وذلك لأن التوسل بالنبي ﷺ بعد انتقاله غير ممكن لأنه انفصل عنهم وأصبح في ظروف أخرى فكيف يدعو لهم، وبينه وبينهم كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾^(٤) لذلك لجأ عمر إلى التوسل الممكن فتوسل بالعباس لقربته وصلاحه، وما كان لعمر ولا لغيره أن يلجأ إلى التوسل بالعباس أو غيره ويدع التوسل برسول الله ﷺ لو كان ذلك ممكناً، وما كان وليس من المعقول أن يقر الصحابة رضي الله عنهم عمر رضي الله عنه على ذلك أبداً.

ثم قال - أى الألبانى: إن الانصراف عن التوسل بالنبي ﷺ إلى التوسل بغيره ما هو إلا كالانصراف عن الإقتداء بالنبي ﷺ في الصلاة، ثم استشهد - أى الألبانى - بحديث صلاة

(١) فتح البارى ٥٧٧/٢.

(٤) تاريخ دمشق ٣٥٩ / ٢٦ - ٣٦٢.

(١) المصدر السابق ٣٥٩ / ٢٦ - ٣٦٢.

(٤) سورة المؤمنون الآية رقم ١٠٠.

أبى بكر بالصحابة في غياب رسول الله ﷺ فلما جاء رسول الله ﷺ صفق الصحابة فرجع أبو بكر وقدم رسول الله ﷺ^(١).

ثم قال: الصحابة لم يستسيغوا الاستمرار على ذلك مع أمر رسول الله ﷺ أبا بكر أن يثبت مكانه. فلو كان التوسل به ﷺ جائزاً بعد انتقاله لما قبل العباس أن يتوسل به، وما قبل الصحابة أن يتوسلوا بغيره والتوسل به ﷺ جائز ثم قال: وهذا يدل على سخافة تفكير من يزعم أنه ﷺ حتى كحياتنا وإلا فما سبب انصرافهم عن الصلاة وراءه إلى الصلاة وراء غيره ممن لا يدانيه أبداً في منزلته وفضله. وهو حتى حياة تختلف عن الحياة الدنيا ولا تخضع لقوانينها فلا يجوز قياسها على الحياة الدنيا^(٢).

ثم قال: ورداً على من أجاز التوسل به بعد انتقاله: وفي قولهم - أى المجيزين - الحديث يفيد بيان جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل. أن الإنسان في وقت الشدة يستنجد بالقوة العظمى ويدع القوة الصغرى لوقت الرخاء حتى الكفار كانوا يتركون الأصنام ويدعون الله عندما يمسه الضرب في البحر. وإذا كان هذا حصل من عمر ليبين ذلك لكفى لهذا التبيين أن يفعله مرة واحدة لكنه تكرر منه ذلك مراراً واستمر عليه وكذلك فعله معاوية والضحاك بن قيس مع يزيد الجرشي، وهذا يدل على أن التوسل بالنبي ﷺ بعد انتقاله غير جائز^(٣).

قلت: هذا كله مبني على اعتقاد الألباني بأن التوسل بالمنتقلين الصالحين لا يجوز وهذا تحكم لا دليل عليه لأن كلمة لا يجوز شرعاً أو غير ممكن في الشرع تحتاج إلى نص صريح يدل على التحريم لأن الحرام منصوص عليه صراحة أو مندرج تحت المنصوص عليه، وكل ما قاله الألباني لا يوجد فيه ولا نص واحد من السنة النبوية يصرح بالنهي - إذن فكل كلام الألباني تعنت وحجر مبني على أصل

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان باب من دخل ليؤم الناس فجاء الإمام الأول جـ ١٩٦/٢ رقم

٦٨٤، ومسلم: كتاب الصلاة - باب تقديم الجماعة من يصلى بهم جـ ٣١٦/١ رقم ٤٢١.

(٢) التوسل للألباني ص: ٦١ - ٦٥ يتصرف.

(٣) التوسل ص: ٦٦ - ٦٨ يتصرف.

فاسد وهو أن الترك يدل على حرمة الفعل وهو قول لا أساس له من الصحة ولا تقوم به حجة.

ثانياً: أن هذا التوسل في الحقيقة راجع إلى النبي ﷺ يدل عليه قول عمر رضي الله عنه " واليوم نتوسل إليك بعم نبيك" ويؤكد ذلك قول العباس رضي الله عنه: وقد تقرب القوم بى إليك لمكانى من نبيك" وقوله "فاحفظ اللهم نبيك في عمه" أى أقبل دعائى لأجل نبيك ﷺ.

قال المرحوم الشيخ محمد متولى الشعراوى:

ونقول لمن يكفر المتوسلين بالنبي أو الولي: هذبوا هذا القول قليلاً، إن حدوث مثل هذا القول هو نتيجة عدم الفهم، فالذى يتوسل إلى الله تعالى بالنبي أو الولي هو - أى المتوسل - يعتقد أن له منزلة عند الله، وهل يعتقد أحد أن الولي يجامله ليعطيه ما ليس له عند الله؟ طبعاً لا. وهناك من قال: إن الوسيلة بالأحياء ممكنة وإن الوسيلة بالأموات ممنوعة، ونقول له: أنت تضيق أمراً متسعاً لأن حياة الحي لا مدخل لها بالتوسل، فإن جاء التوسل بالنبي ﷺ إلى الله فإنك قد جعلت التوسل بحبك لمن علمت أنه أقرب منك إلى الله، فحبك له هو الذي يشفع، وإياك أن تظن أنه سيأتى لك بما لا تستحق.

والجماعة التى تقول: لا يصح أن نتوسل بالنبي ﷺ لأن النبي ﷺ انتقل إلى الرفيق الأعلى. نقول لهم: انتظروا قليلاً: وانتبهوا إلى ما قال سيدنا عمر - رضوان الله عليه - قال: كنا في عهد رسول الله ﷺ إذا امتنع المطر نتوسل برسول الله ﷺ ونستسقى به، ولما انتقل رسول الله ﷺ نتوسل بعمه العباس، وقالوا: لو كان التوسل برسول الله ﷺ جائزاً بعد انتقاله لما عدل عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - عن التوسل بالنبي ﷺ وذهب إلى التوسل بعم النبي ﷺ ونسأل: أقال عمر: كنا نتوسل بنبيك والآن نتوسل إليك بالعباس؟ أم قال: والآن نتوسل إليك بعم نبيك؟

ولذلك فالذين يمنعون ذلك يوسعون الشقة على أنفسهم لأن التوسل لا يكون بالنبي فقط ولكن التوسل أيضاً بمن يمت بصلة إلى النبي ﷺ فساعة يتوسل واحد إلى

غيره، يعنى أنه يعتقد أن الذي توسل به لا يقدر على شيء، إننى أتوسل به إلى الغير لأنى أعرف أنه لا يستطيع أن ينفذ لى مطلوبى، إذن فلنبعد مسألة الشرك بالله عن هذا المجال، ونقول: نحن نتوسل به إلى غيره، لأننا نعلم أن المتوسل إليه هو القادر، وأن المتوسل به هو الحقيقة، وأن المتوسل إليه هو المرجو بالإضافة، والمتوسل به هو محل الرجاء بالإضافة وهذا هو منتهى اليقين ومنتهى الإيمان، ولكن المتوسل به قد ينتفع - أى بالمطر - وقد لا ينتفع، وعندما توسل سيدنا عمر بالعباس عم النبى ﷺ كان يفعل ذلك من أجل المطر، والمطر في هذه الحالة لا ينتفع به رسول الله ﷺ، لذلك جاء بواحد من آل البيت، وكأنه قال: يا رب عم نبيك عطشان فمن أجله نريد المطر.

إذن فتوسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعم النبى ﷺ دليل ضد الذين يمنعون التوسل بالنبى ﷺ بعد الانتقال إلى الرفيق الأعلى^(١). أ هـ.

ثالثاً: أن سيدنا عمر توسل بالعباس وذلك لأن الاستسقاء ليس دعاء فقط وإنما هو صلاة يخرج فيها الإمام والناس معه والأولاد والنساء والبهائم متواضعين متبذلين منكسرين متذللين متوجهين إلى القبلة فيصلى بهم الإمام ركعتين كصلاة العيدين سواء بسواء بلا أذان ولا إقامة يجهر فيهما بالقراءة ثم يخطب خطبة يكثر فيها من الاستغفار والتضرع والدعاء والتكبير ويحول رحله. فالاستسقاء صلاة تحتاج لإمام غير منتقل لفعل هذه الأشياء كلها، لذلك فلا يجوز الائتمام فيها بأحد المنتقلين وهذا سبب عدول عمر رضي الله عنه ومعاويه عن التوسل به ﷺ بعد الانتقال.

رابعاً: أن التوسل بعمومه ليس شرطاً في الدعاء فيجوز تركه فما هو إلا مثل الوضوء والتوجه إلى القبلة، فلو دعا المسلم ربه بدون توسل وعلى غير وضوء وعلى غير توجه إلى القبلة وبدون رفع يديه فلا شيء في هذا ولأن هذه الأشياء كلها من آداب الدعاء وليكون أرجى بالقبول وليحوز بركة من توسل بهم، فلم

(١) تفسير القرآن الكريم للشيخ الشعراوى ص ٣١٠٧ - ٣١٠٨.

التعنّت إذن واتهام المتوسلين بالشرك أو الابتداع فاتقوا الله ولا تفرقوا الأمة بقضايا فرعية لا صلة لها بالعقيدة أن كنتم تعقلون.

خامساً: أن التوسل بالصالحين أحياء أو منتقلين داخل في عموم العمل الصالح لما يشتمل عليه من تضرع وتذلل إلى المتوسل إليه وهو الله سبحانه وتعالى وذكر أحبابه الصالحين.

سادساً: أن قولكم الصالح الحي يتوسل به والصالح الميت لا يتوسل به يستفاد منه أنكم جعلتم حياة الحي لها دخل في تنفيذ ما تطلبون. أما نحن فنقول لا حياة الحي ولا مماته له دخل في تنفيذ المطلوب لأنه متعلق بالقدرة المنفذة وهي قدرة الله عز وجل وإرادته وما الصالح حياً أو ميتاً إلا سبب فقط.

سابعاً: قلتم بجواز التوسل بالعمل الصالح فلو أن مسلماً ما، صلى ركعتين ثم توسل بهما إلى الله في شفاء ولده المريض مثلاً فهذا جائز مع أنه عند هذا المتوسل وغيره هاتين الركعتين غير متيقن قبولهما عند الله عز وجل، فإذا كان شيئ غير متيقن قبوله قد جاز التوسل به إذن فمن باب أولى يجوز التوسل بمن هو متيقن قبوله وهو النبي ﷺ وآل بيته الطاهرين والأئبياء والصالحين.

ثامناً: يزعم بعض المانعين للتوسل بأنه عبادة للمتوسل بهم. ونقول لهم: إن طلب الشفاعة من النبي ﷺ والصالحين مع اعتقاد أنهم جميعاً عبيد الله، وأنهم لا يعطون شيئاً إلا بإذن الله هذا هو التوحيد وليس فيه ذرة شرك.

فإن قلتم: أن التوسل عبادة للمتوسل بهم.

قلنا: ما دليلكم على ذلك؟

فإن قلتم: لم يفعله السلف.

قلنا: لا يصح أن يكون هذا دليلاً كما أنه قد فعله عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -

في توسله بالعباس - رضي الله عنه.

فإن قلتم: عمر قد توسل بالحي لا بالميت.

قلنا: وهل تجوز عبادة الحي؟

فإن قلتم: لا. قلنا لكم: فلماذا إذن تسمون التوسل عبادة؟ فهذا دليل على أنكم تسمون الأشياء بغير اسمها.

فإن قلتم: التوسل بالميت عبادة بخلاف الحي. قلنا لكم: ما دليلكم على التفريق؟

فإن قلتم: دليلنا على ذلك: فعل الصحابة فعلوا هذا ولم يفعلوا ذلك.

قلنا لكم: هذا لا يصح دليلاً، ولا تقام به حجة لأنهم قد يتركون أمراً ولا يكون محرماً، فضلاً عن كونه كفراً مخرجاً من الملة فالترك ليس دليلاً على التحريم، وأيضاً سيدنا عمر - رضي الله عنه - توسل بالعباس، وعدل عن التوسل بذات الله سبحانه وتعالى والتوسل بأسمائه الحسنى وصفاته العلى والتوسل بالعمل الصالح كالصدقة وقراءة القرآن وغير ذلك.

فإن قلتم: هذه الأشياء التي عدل عنها صح التوسل بها لأدلة أخرى في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة؟ قلنا لكم: وأيضاً توجد أدلة في السنة النبوية المطهرة تبين توسل بعض الصحابة بالنبي ﷺ بعد انتقاله كما في حديث عثمان بن حنيف.

فإن قلتم: هذا عندنا ضعيف. قلنا: وأكثر الأحاديث التي تستدلون بها هي عندنا ضعيفة بل هي ضعيفة عند التحقيق مثل حديث تقريب الذباب وحديث شرك آدم وحواء وغيرها من الأحاديث الضعيفة والموضوعة الموجودة في كتبكم.

فإن قلتم: الأولى تجنب التوسل للشبهة والاختلاف.

قلنا لكم: أولى من ذلك تجنب تكفير المسلمين وتفضيل كفار قريش عليهم، لأن الأصل المتيقن هو الإسلام لا الشرك، فلا نترك المتيقن للمظنون^(١).

فإن قلتم: التشديد لابد منه ليهتدى المسلمون لدين الله ويحذروا تلك البدع والخرافات.

(١) قال محمد بن عبد الوهاب في كتاب كشف الشبهات ص: ٧ وآخر الرسل محمد ﷺ وهو الذي كسر صور الصالحين أرسله الله إلى قوم يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله لكنهم - يعني كفار قريش - يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله.

قلنا لكم: والرد عليكم لابد منه ليحذر طلاب العلم من الوقوع في تكفير المسلمين واستحلال دمانهم وأموالهم.

فإن قلتم: تعالوا للتحاكم لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وترك التقليد.

قلنا لكم: مرحباً وأهلاً فقد قلنا لكم هذا من زمن طويل وأنتم ترفضون، وتستعدون علينا السلطات ولم تنتهوا عن تكفير الأولياء حتى كفر بعضكم بعضاً وتظالمتم فعرفتم عنن مقدار ظلمكم لنا في الماضي وتعرفتم على بعض ما كنا نستدل به في براءتنا من الكفر، لأنكم ذكرتم أدلة في الرد على من يكفركم كنا نكررها في الرد على تكفيركم لنا، فاعتدالكم في الأرملة الأخيرة للأسف كان لمصلحة أنفسكم وحمايتها لا حماية جانب الشريعة^(١).

قلت: قولكم أن التوسل عبادة وأقول لكم: حقاً التوسل عبادة لله عز وجل وحده لا شريك له لذلك فعله الصحابة والتابعون وعلماء الأمة، وهل يعقل أن يكون عبادة ويتركها الصحابة رضي الله عنهم؟

فإن قلتم: هو عبادة ليست لله وإنما لمن توسل به.

قلت لكم: فأين إذن المتوسل إليه؟ لأن التوسل عبارة عن: متوسل: وهو المسلم الذي صدر منه التوسل، ومتوسل به: وهو كل محبوب لله مطلقاً. ومتوسل إليه: وهو الله عز وجل.

كما أن العبادة لها ثلاثة أركان مجتمعة: إن فقد ركن فليست عبادة وهي:

١- الاعتقاد باستحقاق العبادة وهو أهم الأركان.

٢- الاتقياد والاستسلام التام لهذا المعبود.

٣- الحب الكامل لهذا المعبود.

فالركنان الأخيران الاتقياد عن حب واجبان على المسلمين في حق رسول الله ﷺ وأيضاً على الأبناء في حق آبائهم والطلاب في حق مشايخهم وأساتذتهم ما لم

(١) يتصرف من كتاب داعية وليس نبياً قراءة نقدية لمذهب الشيخ محمد بن عبد الوهاب في التكفير للأستاذ حسن بن فرحان المالكي ص: ٥٧.

يأمرُوا بما يخالف شرع الله، ولا يسمى هذا عباده وذلك لأن الركن الأول وهو اعتقاد الألوهية هؤلاء مفقود.

فإذا اعتقد أحد الناس بالألوهية الله عز وجل ولم ينقد له سبحانه أو انقاد له لكن كان هذا الانقياد عن إجبار أو أكراه أو كراهية له سبحانه أو أحب غيره كحبه له سبحانه، كانت عبادة الله سبحانه مفقودة في كل هذه الصور وذلك لفقدائها أحد الأركان الثلاثة الماضية.

وأقول لكم: بحمد الله عز وجل لا يوجد مسلم على وجه الأرض عالماً كان أو جاهلاً يؤدي الصلوات الخمس ويصوم شهر رمضان ويؤدي الزكاة ويحج بيت الله إلى غير ذلك من أوامر الله ولا ينكر شيئاً معلوماً من الدين بالضرورة لا يوجد مسلم بهذه الأوصاف ويعتقد أبداً استحقاق العبادة لغير الله عز وجل، ولا اعتقاد الألوهية لغيره سبحانه ولا اعتقاد النفع والضرر والخير والشر والشفاء والمرض والحياة والموت والخلق والأمر لغيره سبحانه وتعالى وإذا وقعت هذه الأشياء على يد مخلوق فقد وقعت بإذنه وإرادته ومشينته سبحانه جل شأنه وما المخلوق إلا سبب فقط لأن الله عز وجل أودع حكمته في مخلوقاته، فالجوء للطبيب من أجل الشفاء وللمذاكرة من أجل النجاح، وللسعى من أجل الرزق، وللصالحين من أجل البركة، وللغنى من أجل العطاء وللعالَم من أجل التعلم، وللمدير من أجل المصلحة كل ذلك أسباب فقط والفاعل الحقيقي المتصرف في الكون كله هو الله عز وجل وحده لا شريك له لا ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلًا ولا غيره وهذا هو التوحيد والعقيدة الصحيحة الخالية من كل شرك، وهو ما عليه رسول الله ﷺ وأصحابه وعلماء الأمة وعامة المسلمين.

وإذا كان كفار قريش أقروا واعترفوا بأن الله عز وجل هو الخالق وحده لا شريك له وأنه لا يرزق إلا هو ولا يحيى ولا يميت إلا هو ولا يدبر الأمر إلا هو وأن جميع السماوات ومن فيهن والأرضين السبع ومن فيهن كلهم عبيده وتحت قهره وتصرفه كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ

فسيقولون الله فقل أفلأ تتقون ﴿١﴾ ولم تنفعهم هذه الاعترافات وهذه الإقرارات وذلك لأنهم اعترفوا بها من باب الإفحام والانتقطاع وليس من باب الاقتناع فهم لا يجدون جواباً غير هذا، ولو كانوا صادقين في اعترافهم من داخلهم لنتفقوا بالشهادتين وأتوا بلوازم هذا الاعتراف من العبادات الظاهرة، فلذلك يأمر الله نبيه ﷺ أن يذكرهم بلوازم هذا الاعتراف كما عقب سبحانه في نهاية الآيات بعد إقرارهم ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٢﴾ ﴿قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ ﴿٣﴾..... إلخ.

فكان الله عز وجل يوبخهم بأنهم كاذبون وأنهم لا يؤمنون بالله عز وجل خالقاً ورازقاً كما لا يستطيعون في الوقت نفسه أن يقولوا أن الأصنام هي التي خلقت السماوات والأرض، فبقوا بين الاعتراف بالقول انقطاعاً وممارسة ما يخالفه واقعاً. ولو سلمنا جدلاً بأنهم قالوه اعتقاداً فلم ينفعهم لعدم اعترافهم برسالة سيدنا محمد ﷺ وتكذيبهم بالقرآن وبالبعث وسائر التشريعات. فكيف يجعل المسلم المتوسل بالصالحين مثل هؤلاء إن أنتم إلا مفترون.

تاسعاً: قال الشيخ السمنودي: من منع التوسل إلى الله تعالى بالذوات الفاضلة فقد تحكم وافترى، فإن التوسل بها قد صرحت به الأدلة كما صرحت أيضاً بأن مجرد وجود الذوات المذكورة مانع من وقوع العذاب والهلاك قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ ﴿٤﴾ عن أنس بن مالك قال: قال أبو جهل ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿٥﴾ فنزلت وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم الآية ﴿٦﴾. ذكر

(١) سورة يونس الآية / ٣١.

(٢) سورة المؤمنون الآية / ٨٥.

(٣) سورة المؤمنون الآية / ٨٩.

(٤) سورة الأنفال الآية / ٣٣.

(٥) سورة الأنفال الآية / ٣٢.

(٦) أخرجه البخاري: في تفسير سورة الأنفال جـ ٨ / ١٦٠ رقم ٤٦٤٩.

المفسرون أن الكفار استعجلوا العذاب فنزلت الآية دلت على أن حلول ذات النبي ﷺ مائعة من نزول العذاب على الكفار، ولا يمكن للخصم أن يقول أن النبي ﷺ نفعهم بجاهه أو بدعائه أو بشفاعته مثلاً لأن هذه الأشياء لا تكون للكفار لحرمانهم منها بالكفر قطعاً وقال بعض السلف في قوله تعالى: "وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون" بأن معناه ما كان الله معذبهم وفي أصلابهم من يستغفر، يعنى من قدر الله أن يخرج من صلب الكفار ويستغفر وهو المكتوب أنه يؤمن بالله تعالى بعد خروجه من صلب الكافر، فجعل الله تعالى وجود النطف المؤمنة في أصلاب الكفار أبواباً لدفع العذاب عنهم فكيف بالذوات الفاضلة^(١).

عاشراً: إذا كان الله تعالى قد جعل بعض الجمادات أسباباً لجلب المنافع ودفع المضار، مع أنه لا يعقل لها جاه ولا دعاء ولا شفاعاة، كما ثبت بمقتضى حديث "ماء زمزم لما شرب له"^(٢) فكيف لا تكون الذوات الفاضلة ولا سيما ذات نبينا ﷺ وسيلة إلى الله تعالى في حصول ذلك؟

(١) سعادة الدارين ٤٣١/١.

(٢) أخرجه ابن ماجه: كتاب المناسك باب الشرب من زمزم ١٠١٨/٢ رقم ٣٠٦٢ وقال الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي: قال السيوطي: هذا الحديث مشهور على الألسنة كثيراً واختلف الحفاظ فيه: فمنهم من صححه ومنهم من حسنه ومنهم من ضعفه والمعتمد الأول. وفي الزوائد: هذا إسناد ضعيف لضعف عبد الله بن المؤمل. وقد أخرجه الحاكم في المستدرک من طريق ابن عباس وصححه، وقال السندی: ذكر العلماء أنهم جربوه فوجدوه كذلك. أ هـ.

قلت: وأخرجه البيهقي في الكبرى: كتاب الحج باب الرجوع إلى منى جـ ٥/ ٢٤١ رقم ٩٦٦٠ وقال: تفرد به ابن المؤمل. أ هـ. وقال ابن الترمكاني: لم ينفرد به ابن المؤمل بل تابعه ابراهيم بن طهمان عن الزبير كما أورد البيهقي نفسه في نفس الكتاب، باب الرخصة في الخروج بماء زمزم جـ ٥/ ٣٣١ رقم ٩٩٨٧ فهو حديث حسن وحسنه الدمياطي وغيره وهو مجرب.

ولو طالبنا منكر اعتبار الذوات بدليل واحد ولو ضعيفاً لم يجد إلى ذلك سبيلاً فليته إذ جهل استحيا من الله ورسوله ولم يتفوه بمنع التوسل بذاته ﷺ، بل ياليتيه اقتصر على ذلك ولم يجعل ذات نبينا ﷺ في التوسل بها كالكالات والعزى زاعماً أن تلك الضلالات هي التوحيد وما عداها شرك وضلال وخرافات.

كما أن حديث الصحيحين أن النبي ﷺ مر على قبرين فقال أنهما يعذبان ثم دعا بعسيب أى جريدة النخل فشقه نصفين وجعل على كل قبر نصفاً وقال: لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا" فهذا ليس خاصاً بالنبي ﷺ حتى يقال أن ارتفاع العذاب بسبب وضعه ﷺ بيده الشريفة لأن الأصل في أفعاله ﷺ التأسى إلا ما دل دنييل على الخصوصية ولا دليل عليها هنا فلذا أجمع العلماء من كل مذهب على العمل به في كل عصر بلا تكبير، وقد ذكر البخاري في صحيحه أن بريدة بن الحصيب رضي الله عنه أوصى بأن يجعل على قبره جريدتان، فهل يجوز التسبب بجريد النخل وهو ذات بلا شك ولا يعقل له جاه ولا يجوز التسبب بذات سيد الوجود ﷺ إن هذا الأمر عجيب^(١).

حادى عشر: زعم الألبانى ومن لف لفه أن التوسل بالذوات الفاضلة لم يفعله الصحابة ولا التابعون ولا من بعدهم، والعكس هو الصحيح فالصحابة والصحابة وغيرهم ممن أتى بعدهم توسلوا برسول الله ﷺ وبالصالحين وما زال الكثير من علماء الأمة يفعلون ذلك إلى اليوم إلا هذه الشرذمة القليلة التى شذت عن الملايين من علماء الأمة والصدّيقين منها والأدلة على ذلك ما يأتي:

١- أخرج ابن أبى شيبّة في مصنفه بإسناد صحيح قال: حدثنا أبو معاوية، عن أبى صالح، عن مالك الدار، قال: وكان خازن عمر على الطعام. قال: أصاب الناس قحط في زمن عمر - رضي الله عنه - فجاء رجل إلى قبر النبي ﷺ فقال: يا رسول الله استسق لأمتك فإنهم قد هلكوا، فأتي الرجل في المنام. فقيل له: أنت

عمر فآقرنه السلام وأخبره أنكم مسقيون وقل له: عليك الكيس! عليك الكيس! فأتى عمر فأخبره، فبكى عمر، ثم قال: يا رب. لا آلو إلا ما عجزت عنه^(١).

والشاهد في هذا الأثر قول الرجل عند قبر رسول الله ﷺ له يا رسول الله استسق لأمتك. وأقره عمر - رضي الله عنه على ذلك ولم يعنفه ولم يؤنبه ولكنه عزز موقفه وبكى واعتذر لله تعالى ولم يكتف بصلاة الاستسقاء ولكن أراد أن يظهر قدر آل بيت رسول الله ﷺ فقدم العباس متوسلاً به إلى الله تعالى.

قد يقول قائل: إنها رؤيا منامية، والرؤيا لا تثبت بها الأحكام الشرعية إلا أن تكون رؤيا الأنبياء عليهم السلام لأنها من الوحي. قال الإمام النووي في أوائل كتابه الأسماء واللغات ٤٣/١ في معرض كلامه على خصائص النبي ﷺ قال: ومنه - أى مما خص به نبينا ﷺ أن من رآه في المنام فقد رآه حقاً فإن الشيطان لا يتمثل في

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف: كتاب الفضائل - باب ما ذكر في فضل عمر - رضي الله عنه - ج ٦ / ٣٥٩ رقم ٣١٩٩٣ وإسناده: أبو معاوية: هو محمد بن خازم الضرير ثقة أحفظ الناس لحديث الأعمش. سير أعلام النبلاء ٧٣/٩.

الأعمش: هو سليمان بن مهران ثقة أبو صالح السمان: هو ذكوان بن عبد الله ثقة ثبت سير النبلاء ٣٦/٥.

مالك الدار: تابعي قديم متفق عليه أثنى عليه التابعون وليس بكثير الرواية روى عن أبي بكر الصديق وعمر رضي الله عنهما وروى عنه: أبو صالح السمان، وابن عوف وعبد الله ابن مالك الدار واسمه مالك بن عياض مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه. كما روى عنه = أيضاً عبد الرحمن بن سعيد بن يربوع. انظر الإرشاد للخليلي ج ١ / ٣١٣، طبقات ابن سعد ٣ / ٣٠٩، ٣١٥، الزهد لابن المبارك ١ / ١٧٨ قلت: إذن فليس بمجهول كما زعم الألباني. وقال د/ محمد سعيد محقق الإرشاد للخليلي: زالت عنه علة الجهالة التي تمسك بها بعض المعاصرين. وقال الحافظ في الفتح: روى ابن أبي شيبة بإسناد صحيح من رواية أبي صالح السمان عن مالك الدار وذكر هذا الحديث. وقال: وقد روى سيف في الفتوح أن الذي رأى المنام المذكور هو بلال بن الحارث المزني أحد الصحابة كما أخرجه أيضاً الخليلي في الإرشاد ج ١ / ٣١٣ من طريق أبي خيثمة عن أبي معاوية به.

صورته، ولكن لا يعمل بما يسمعه الرائي منه في المنام مما يتعلق بالأحكام خلاف ما استقر في الشرع لعدم ضبط الرائي، لا للشك في الرؤيا لأن الخبر لا يقبل إلا من ضابط مكلف والنائم بخلافه ... إلخ. وقال أيضاً في مقدمه شرحه على صحيح مسلم ١١٥/١ معنى الحديث أن رؤيته صحيحة وليست من أضغاث الأحلام وتلبس الشيطان ولكن لا يجوز إثبات حكم شرعى به، لأن حالة النوم ليست حالة ضبط وتحقق لما يسمعه الرائي وقد اتفقوا على أن من شرط من تقبل روايته وشهادته أن يكون متيقظاً لا مغفلاً ولا سيئ الحفظ ولا كثير الخطأ ولا مختل الضبط، والنائم ليس بهذه الصفة فلم تقبل روايته لاختلال ضبطه. هذا كله في منام يتعلق بإثبات حكم على خلاف ما يحكم به الولاه، أما إذا رأى النبي ﷺ يأمره بفعل ما هو مندوب إليه أو ينهيه عن منهي عنه أو يرشده إلى فعل مصلحة فلا خلاف في استحباب العمل على وفقه، لأن ذلك ليس حكماً بمجرد المنام بل بما تقرر من أصل ذلك الشيء. والله أعلم. أ هـ. وبه جزم القاضى عياض والشاطبى في الاعتصام ٢٠٩/١، ٢١٢ وجـ ٢٦٦/٢، وابن الحاج في المدخل ٣٠٢/٤ - ٣٠٤ وابن المفلح الحنبلى في الآداب الشرعية ٣/٥٤ وأبو زرعة العراقي في طرح التثريب ٨/ ٢١٥ وملا على القارئ في مرقاه المفاتيح ٥/ ١٨٤.

قلت: في هذا الأثر الاستقاء بالقبر الشريف لم يكن مناماً وإنما كان يقظة وهذا لم ينكره أحد أما الذي جاء في المنام فهو إقراء عمر - رضي الله عنه السلام من رسول الله ﷺ وتبشيره بالسقيا وتوصيته بالكيس ولذلك تقبله عمر رضي الله عنه وبكى واعتذر عما عجز عنه وقام متوسلاً بآل بيت النبوة عم رسول الله ﷺ.

فهذه الرؤيا ليست فيها ما يخالف شرع الله عز وجل فلو أن مريضاً مثلاً عجز الطب عن علاجه رأى في منامه رسول الله ﷺ أو أحد الصالحين وصف له دواءً أو علاجاً لا يخالف الشريعة فمن المستحب تنفيذه فسيكون فيه الشفاء بإذن الله.

وقد جاء عن أنس وغيره أن ثابت بن قيس بن شماس يوم اليمامة وقد تحنط وليس ثوبين أبيضين فكفن فيهما وقد انهزم القوم فقال: اللهم إني أبرأ إليك مما جاء

به هؤلاء واعتذر إليك من صنيع هؤلاء فقاتل حتى قتل وكانت درعه قد سريت فرآه رجل في النوم فقال له: إنى لما قتلت انتزع درعى رجل من المسلمين وخبأه في أقصى العسكر وهو عنده وقد أكب على الدرع برمة، وجعل على البرمة رحلاً فأت الأمير فأخبره وإياك أن تقول: هذا حلم فتضيعه، وإذا أتيت المدينة فقل لخليفة رسول الله ﷺ إن على من الدين كذا وكذا، وغلami فلان من رقيقي عتيق، وإياك أن تقول هذا حلم فتضيعه. قال: فأتاه فأخبره الخبر فوجد الأمر على ما أخبره، وأتى أبا بكر فأخبره فأنفذ وصيته، فلا نعلم أحداً بعد ما مات أنفذ وصيته غير ثابت بن قيس بن شماس^(١).

فهذه رؤيا وأخبر فيها الصحابي ثابت بن قيس رضي الله عنه النائم بالدرع الذي سرق منه وبالمكان الذي خبأه فيه السارق وأوصى وصية تضمنت قضاء ما عليه من ديون وعتق فلان من عبيده وأخذ الدرع لإعطائه للورثة وعدم التهاون بهذه الرؤيا وتنفيذ ما فيها. فهذا منام والميت أوصى فيه أمير المؤمنين ونفذ سيدنا أبو بكر الصديق تلك الوصية.

فانظر إلى تشديده على الرائي أن يبلغ وصيته دون تردد، وكيف حدد مكان الدرع بالرغم من مبالغة أخذها في إخفائها، وكيف فطن هو وحده لذلك الآخذ مع أنه ميت ولم يفطن له الأحياء المحيطون به من كل مكان فمن بعد ذلك ينكر أو يتردد في أن الميت بعد موته يسمع ويرى ويتكلم والقدرة الإلهية صالحة لذلك كله وأكثر. والله أعلم.

٢- ما ورد على ألسنة الجن من البشائر به ﷺ ومن ذلك خبر سواد بن قارب - رضي الله عنه - وكان من دوس قوم أبى هريرة - رضي الله عنه - كان يتكهن في الجاهلية وكان شاعراً.

(١) الحاكم: في المستدرک: کتاب معرفة الصحابة ٣/ ٢٦٠ - ٢٦١ رقم ٥٠٣٥، وصححه وأقره الذهبی ورقم ٥٠٣٦ وسكت عنه. وانظر سير النبلاء ٣١١/١.

فعن محمد بن كعب القرظي قال: بينا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه ذات يوم جالس إذ مر به رجل فقيل له: يا أمير المؤمنين أتعرف هذا المار؟ قال: ومن هذا؟ قيل سواد بن قارب الذي أتاه رثيه - أي تابعه من الجن - الذي يتراءى له بظهور النبي ﷺ، وكان هذا القول لعمر - رضي الله عنه - بعد أن قال وهو على المنبر: أيها الناس فيكم سواد بن قارب؟ فلم يجبه أحد، فلما كانت السنة المقبلة زمن مجيئ الناس للزيارة من الآفاق قال: أيها الناس فيكم سواد بن قارب كان بدء إسلامه شيئاً عجيباً. قال البراء: فبينما نحن كذلك إذ طلع سواد بن قارب، فقالوا لعمر - رضي الله عنه - هذا سواد فأرسل إليه فجاء فقال له: أنت سواد بن قارب، قال: نعم. قال: أنت أتاك رنيك بظهور النبي ﷺ؟ قال: نعم. ثم قال له عمر - رضي الله عنه: حدثنا يا سواد ببدء إسلامك كيف كان؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين:

بينما أنا ذات ليلة بين النائم واليقظان إذ أتاني رئي وضربني برجله وقال: قم يا سواد بن قارب واسمع مقالتي واعقل إن كنت تعقل، إنه قد بعث رسول من لؤى بن غالب يدعو إلى دين الله عز وجل وإلى عبادته، ثم أنشأ يقول:

عجبت للجن وتطلبها . . . وشدها العيس بأفتابها

تهوى إلى مكة تبغى الهدى . . . ما صادق الجن كذابها

فارحل إلى الصفوة من هاشم . . . ليس قداماها كأذنا بها

فقلت: دعني أتم فإنني أمسيت ناعساً، ولم أرفع بما قال رأساً، فلما كانت الليلة الثانية أتاني فضربني برجله وقال: قم يا سواد بن قارب فاسمع مقالتي واعقل إن كنت تعقل، إنه قد بعث رسول من لؤى بن غالب يدعو إلى الله عز وجل وإلى عبادته ثم أنشأ يقول:

عجبت للجن وتخبارها . . . وشدها العيس بأكوارها

تهوى إلى مكة تبغى الهدى . . . ما مؤمن الجن ككفارها

فارحل إلى الصفوة من هاشم . . . بين روايبها واحجارها

فقلت: دعنى أتم فإنى أمسيت ناعساً، ولم أرفع بما قال رأساً، فلما كانت الليلة الثالثة أتانى فضربنى برجله وقال: قم يا سواد بن قارب فاسمع مقالتي واعقل إن كنت تعقل إنه بعث رسول من لوى بن غالب يدعو إلى الله عز وجل وإلى عبادته ثم أنشأ يقول:

عجبت للجن و تجساسها . . . وشدها العيس بأحلاسها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى . . . ما خيرَ الجن كأنجاسها
فارحل إلى الصفوة من هاشم . . . واسم بعينيك إلى رأسها

فقلت: امتحن الله قلبي فرحلت ناقتي حتى أتيت مكة فإذا رسول الله ﷺ وأصحابه حوله، فلما رآنى قال: مرحباً بك يا سواد بن قارب قد علمنا ما جاء بك. قلت يا رسول الله قد قلت شعراً فاسمع مقالتي. فقال: هات فأنشأت أقول:

أتانى رئيى بعد ليل وهجعة . . . ولم يك فيما قد بلوت بكاذب
ثلاث ليال قوله كل ليلة . . . أذاك رسول من لوى بن غالب
فشمرت عن ذيل الإزار ووسطت . . . بى الذعلب الوجناء بين السبابس
فأشهد أن الله لا رب غيره . . . وأنك مأمون على كل غائب
وإنك أدنى المرسلين وسيلة . . . إلى الله يا ابن الأكرمين الأطياب
فمرنا بما يأتيك يا خير مرسل . . . وإن كان فيما جاء شيب الذوائب
وكن لى شفيعاً يوم لا ذو شفاعة . . . سواك بمغن عن سواد بن قارب

ففرح النبى ﷺ وأصحابه بمقالتي فرحاً شديداً حتى روى الفرخ في وجوههم وضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه وقال: أفلحت يا سواد^(١).

(١) وانظر أيضاً: الاستيعاب ٢/٢٣٣، الإصابة ٣/١٨١، الروض الأنف ١/٣٦٦، ٣٦٧ البداية والنهاية ٢/٣٣٢ - ٣٣٧، حجة الله على العالمين فى معجزات سيد المرسلين ص: ١٨٣،

قلت الشاهد في هذا قوله: وإنك أدنى المرسلين وسيلة إلى الله" أى أعظم وأقرب وسيلة إلى الله عز وجل هو سيدنا محمد ﷺ فلم يقل له رسول الله ﷺ في حياتي فقط أو بدعائي فقط وإنما سمعها منه على إطلاقها فلم يقيد بها بشئ مما ذكر وإنما تركها على هذا الإطلاق وفرح بها فرحاً شديداً وضحك حتى بدت نواجذه ودعا له بالفلاح في قوله ﷺ: أفلحت يا سواد فمن قيدها أو خصصها بالحياة أو بالدعاء فقد تحكم وافترى نعوذ بالله أن نكون من الجاهلين.

قال الحافظ السيوطي في الخصائص الكبرى بعد أن ذكر الحديث عن البيهقي في الدلائل: هذا الحديث له عدة طرق: فأخرجه ابن شاهين في الصحابة من طريق الفضل بن عيسى القرشي، عن العلاء بن زيد عن أنس بن مالك قال: دخل سواد بن قارب على النبي ﷺ فذكر القصة بطولها.

وأخرجه الحسن بن سفيان في مسنده من طريق الحسين بن عمارة، عن عبد الله بن عبد الرحمن قال: دخل سواد على عمر فذكر الحديث بطوله.

وأخرجه البخاري في تاريخه والبغوي والطبراني من طريق عباد بن عبد الصمد قال: سمعت سعيد بن جبير أخبرني سواد بن قارب قال: كنت نائماً فذكره بطوله.

وأخرجه الحسن بن سفيان وأبو يعلى والحاكم والبيهقي والطبراني من طريق عثمان بن عبد الرحمن الوقاصي عن محمد بن كعب القرظي، قال: دخل سواد على عمر فذكره بطوله.

وأخرجه ابن أبي خيثمة والرويانى في مسنده والخرائطي من طريق أبى جعفر محمد الباقر قال: دخل سواد بن قارب على عمر فذكره^(١). أ هـ.

٣- قال الإمام النووي - رحمه الله - في ترجمة عقبة بن عامر الجهني الصحابي الجليل: عقبة بن عامر الصحابي - رضي الله عنه - كان البريد إلى عمر ابن

الخطاب - رضي الله عنه - في فتح دمشق ووصل المدينة في سبعة أيام، ورجع منها إلى الشام في يومين ونصف بدعائه عند قبر رسول الله ﷺ وتشفعه به في تقريب طريقه^(١).

قلت: وهذا توسل صريح من صحابي جليل برسول الله ﷺ بعد انتقاله ﷺ.

والدعاء عند قبور الصالحين هو استشفاع وتوسل بهم وقد حدث هذا لكثير من الصحابة والتابعين ومن بعدهم .

هذا وما تركت ذكره أكثر لئلا يطول البحث لأكبر دليل على جواز التوسل بالصالحين في الحياة وبعد الممات ولقد قال الغزالي في الأحياء من يتبرك به وهو حي يتبرك به وهو ميت. أ هـ. قلت: لأن هذه البركة مدد روحاني من الله عز وجل لأحبابه فلا انقطاع لها بالموت وإنما ينعكس منها بفضل الله وكرمه على الزائر الحي إكراماً له.

- ويضاف إلى ما سبق توسل علماء الأمة واستشفاعهم واستغاثتهم برسول الله ﷺ عبر القرون والأزمان دون نكير من أحد حتى جاء ابن تيمية فأنكر ذلك.

قال الحافظ السبكي: ويحسن التوسل والاستعانة والتشفع بالنبي ﷺ إلى ربه ولم ينكر ذلك أحد من السلف حتى جاء ابن تيمية فأنكر ذلك وعدل عن الصراط المستقيم وابتدع ما لم يفعله عالم قبله وصار بين أهل الإسلام مثله^(٢).

قلت ومن ذلك الذي فعله علماء الأمة من توسل واستغاثة مضافاً لما سبق:

■ المحدث محمد مرتضى الزبيدي توسل بقوله "بجاه سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين"^(٣).

■ الحافظ الذهبي في ترجمة الذهلي قال: كان ورعاً تقياً محتشماً يتبرك بقبره^(٤).

(١) تهذيب الأسماء واللغات للنووي ٣٠٨/١، ٣٠٩.

(٢) شفاء السقام ص: ١٦١.

(٣) التجريد الصحيح لأحاديث الجامع الصحيح ص: ٦.

(٤) سير النبلاء ١٨ / ١٠١.

■ الحافظ العجلوني قال عند حديث طلب خاتمه الخير ومما يناسب إيرادها هنا ما نسب لبعضهم:

يا رب فارحمني بجاه المصطفى . كنز الوجود وذى الهبات الباهرة

وبخير خلقك لم أزل متوسلاً . ذى المعجزات وذى العلوم الفاخرة ^(١)

■ الحافظ السخاوى قال: سيدنا محمد سيد الأنام كلهم ووسيلتنا وسندنا وذخرنا في الشدائد والنوازل ﷺ تسليماً كثيراً آمين آمين آمين ^(٢).

■ الحافظ ابن كثير قال في النار التى خرجت من أرض الحجاز في أحداث ٦٥٤ هـ قال:

فالله يجعلها عبرة للمسلمين ورحمة للعالمين بمحمد وآله الطاهرين ^(٣).

■ حجة الإسلام أبو حامد الغزالي قال: اللهم إنا قد سمعنا قولك وأطعنا أمرك وقصدنا نبيك مستشفعين به إليك في ذنوبنا فتب اللهم علينا وشفع نبيك هذا فينا وارفعنا بمنزلته عندك وحقه عليك ^(٤).

■ ابن الحاج المالكي وكان معاصراً لابن تيمية فهو يرد عليه بكلامه الآتي حيث قال رحمه الله في كتابه المدخل عند الكلام على زيارة القبور: فإن كان الميت المزار ممن ترجى بركته فيتوسل إلى الله تعالى به ... إلى أن قال: ثم يتوسل بأهل تلك المقابر أعنى بالصالحين منهم في قضاء حوائجه ... ويجأر إلى الله تعالى بالدعاء عندهم ويكثر بهم التوسل إلى الله تعالى لأنه سبحانه وتعالى اجتباهم وشرفهم وكرمهم فكما نفع بهم في الدنيا ففي الآخرة أكثر فمن أراد حاجة فليذهب إليهم ويتوسل بهم فإنهم الواسطة بين الله تعالى وخلقهم، وقد تقرر في الشرع وعلم ما لله تعالى بهم من الاعتناء وذلك كثير مشهور وما زال

(١) كشف الخفا للعجلوني ٤٣/٢.

(٢) فتح المغيث للسخاوى ٤١٠/٤.

(٣) البداية والنهاية ١٣/١٩٢.

(٤) إحياء علوم الدين ١/٢٥٩.

الناس من العلماء والأكابر كابرا عن كابر مشرقا وغربا يتبركون بزيارة قبورهم ويجدون بركة ذلك حسا ومعنى.

ثم ذكر كلام الشيخ الإمام أبى عبد الله بن النعمان ولفظه: تحقق لذوى البصائر والاعتبار أن زيارة قبور الصالحين محبوبة لأجل التبرك مع الاعتبار فإن بركة الصالحين جارية بعد مماتهم كما كانت في حياتهم والدعاء عند قبور الصالحين والتشفع بهم معمول به عند المحققين من أئمة الدين^(١).

■ الإمام الشيخ شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حماد بن محسن البوصيرى صاحب البردة في مدح المصطفى ﷺ وفيها توسل كثير فمن ذلك يا أكرم الخلق مالى من ألوذ به . . . سواك عند حلول الحادث العمم وفيها فإن من جودك الدنيا وضرتها . . . ومن علومك علم اللوح والقلم وفيها إن لم يكن في معادى آخذاً بيدي . . . فضلا وإلا فقل يا زلة القدم وغير ذلك كثير:

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في شرح الهمزية ١/١٠٥: وإن أبلغ ما مدح به النبى ﷺ من النظم الرائق البديع وأحسن ما كشف عن شمائله من الوزن الفائق المنيع، وأجمع ما حوته قصيدة من مآثره وخصائصه ومعجزاته، وأفصح ما أشارت إليه منظومة من بدائع كمالاته، ما صاغه صوغ التبر الأحممر ونظمه نظم الدر والجوهر الشيخ الإمام العارف الهمام الكامل المغنن المحقق والبليغ الأديب المدقق إمام الشعراء وأشعر العلماء وبليغ الفصحاء وأفصح البلغاء الحكماء الشيخ شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد ابن حماد بن محسن بن عبد الله بن صنهاج بن هلال الصنهاجى الدلا صيرى ثم اشتهر بالبوصيرى.

ولد سنة ٦٠٨ هـ وأخذ عنه الإمام أبو حيان النحوى صاحب البحر المحيط فى التفسير وأبو الفتح اليعمرى ابن سيد الناس والعز بن جماعة وغيرهم. توفى سنة ٦٩٤ هـ.

هذه القصيدة التى اشتهرت بين العلماء وحفظوها وتنافسوا فى حفظها فقد حفظها ابن حجر العسقلانى والسراج البلقينى والسراج بن الملقن وزين الدين العراقى والسيوطى، والشمى والفيروزآبادى صاحب القاموس المحيط، وشهاب الدين أبى العباس أحمد الرشيدى المكى، وأبو العباس أحمد بن محمد الأزدى القصار وغيرهم كثيرون من أئمة الدين وجهابذة العلماء^(١).

إلى أن جاء أحد الذين أعمى الله بصيرتهم فقال بكفر قائلها وأنه مرتد وأن من قرأها أو سمعها أو كانت عنده أو رضى بها فقد كفر وتجاوز حده ويجب قتله مما جعل العلماء يردون قوله عليه ومنهم العالم الجليل داود بن سليمان النقشبندى البغدادى فى كتاب له اسمه "تحت حديد الباطل وبرده بأدلة الحق الذابة عن صاحب البردة" أجاد فيه وأفاد وأظهر فيها عمى من انطمست بصيرته فأصبح يتخبط ولا يدرى.

■ ابن علان الصديقى الشافعى توسل بقوله: وأشهد أن سيدنا ونبينا ووسيلتنا إلى ربنا محمداً ﷺ وبقوله: بجاه نبيك سيد المرسلين ﷺ^(٢).

■ ابن قدامة المقدسى ذكر قصة العتبى وما فيها من توسل بالنبي ﷺ^(٣).

■ شيخ الإسلام إبراهيم البيجورى فى كتابه الحاشية قال: ونسأله حسن الختام بجاه سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام^(٤)، وفى كتابه تحفة المريد على جوهرة

(١) ذكرهم صاحب نحت حديد الباطل فزادوا على عشرين عالماً من جهابذة العلماء. انظر نحت حديد الباطل ص: ٢٠، ٢١.

(٢) دليل الفالحين شرح رياض الصالحين فى مقدمة الكتاب وفى جـ ٤ / ٧٦٧.

(٣) المغنى لابن قدامة ٥ / ٩٦.

(٤) حاشية البيجورى ٢ / ٤٠٨.

التوحيد وقد درسناها في الثانوية الأزهرية قال في المقدمة والله أسأل وبنبيه أتوسل^(١) ومثل ذلك في آخر الكتاب^(٢).

- الإمام تقي الدين أبو الفتح توسل بقوله: وأرغب إليه بالنبي المصطفى^(٣).
- تقي الدين الحصني الشافعي المتوفى سنة ٨٢٩هـ له كتاب دفع شبه من شبه وتمرد رد فيه على ابن تيمية في إنكاره التوسل أبلغ رد لدرجة أنه قال: ما رأيت أفجر منه في قلبه ضغينة لرسول الله ﷺ وأهل بيته. انظر كتاب دفع شبه من شبه وتمرد ص ٤٢٥.
- تقي الدين بن دقيق العيد توسل بقوله: أعد لها جاه الشفيع المشفع^(٤).
- الإمام القرطبي المفسر قال: بحق محمد ﷺ وآله^(٥). عند تفسيره للآية رقم ١٠٠ من سورة التوبة.
- الإمام الألوسي في تفسيره لقوله تعالى: الرحمن الرحيم قال: اللهم اجعلنا سعداء الدارين بحرمة سيد الثقلين ﷺ^(٦).
- وقد عقد الشيخ يوسف النبهاني باباً كاملاً فيما ورد من النظم في استغاثات العلماء والفضلاء به صلى الله عليه وسلم منها^(٧):
- قول الإمام البوصيري (ت ٦٩٦هـ) ضمن أبيات كثيرة:
يا نبي الهدى استغاثة ملهوف . . . اضرت به الحوباء
- وقول الإمام الصرصري الحنبلي المتوفى ٦٥٦هـ:

(١) تحفة المريد على جوهرة التوحيد ص ٧.

(٢) المصدر السابق ص: ٢٦٨.

(٣) طبقات الشافعية للسبكي ١٠١ / ٥.

(٤) المصدر السابق ١٢٢ / ٥.

(٥) تفسير القرطبي ٢٠٧ / ٨.

(٦) تفسير الألوسي ١٣٩ / ١ سورة الفاتحة.

(٧) شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق ﷺ ص: ٣٥٠ - ٤١٠.

- فأغثنى وكن لضعفى مجيراً .: في مقام تخافه الأتقياء
- وقال الإمام عبد الرحيم البرعى اليمنى (ت ٩٠٣هـ):
تداركنى بجاهك من ذنوب .: وأوزار يضيق بها الفضاء
وكن لى ملجأ في كل حال .: فليس إلى سواك لى التجاء
- وقول الشيخ برهان الدين القيراطى المصرى ت (٨٧١هـ):
يا رسول الإله أنت ملاذى .: حين تخشى من حوبها حوبائى
يا نبي الهدى بقلبي داء .: عز منه إن لم تغثنى دوائى
- وقول الشيخ شمس الدين النواجى المصرى ت سنة ٨٥٩هـ
يا رسول الإله إنى غريب .: فأغثنى يا ملجأ الغرباء
يا رسول الإله إنى فقير .: فأعنى يا منجد الفقراء
يا رسول الإله إنى ضعيف .: فاشفنى أنت مقصد للشفاء
يا رسول الإله إن لم تغثنى .: فإلى من ترى يكون التجائى
- وقول الشيخ أبو عبد الله بن زمرك الغرناطى ت سنة ٧٦٧هـ.
يا ملجأ الخلق المشفع فيهم .: يا رحمة الأموات والأحياء
أشكوا إليك وأنت خير مؤمل .: داء الذنوب وفى يدك دوائى
- وقول الحافظ ابن حجر العسقلانى ت ٨٥٢هـ.
نبي الله يا خير البرايا .: بجاهك أتقى فصل القضاء.
- وقول الشهاب المنصورى المصرى ت ٨٨٧هـ
يا أعظم الشفعاء عند الله كن .: لى شافعاً يا أعظم الشفعاء
فلأنت خير زخيرة أرجو بها .: بدلاً من الضراء بالسراء
- وقول الشيخ عبد العزيز بن على الزمزمى المكى ت سنة ٩٦٣هـ
يا منيع الحمى إليك التجائى .: من عنى ما وجدت منه لجاء
يا طبيب القلوب ها أنت أدرى .: بدوائى من قبل وصفى الداء

■ وقول الشيخ أبو الصفا أيوب الخلوتي الدمشقي:

يا رسول الإله يا من توسل . . . ست لربي به وبالأنبياء
وبصحب له وإخوان صدق . . . قد أتوا بعدهم من الأولياء
كن لرام لديك ثقل ذنوب . . . رام تخفيفها بحاء وباء

■ وقول الشيخ عبد الغنى النابلسي:

يا أجل الرسل الكرام ويا من . . . حسدتنا لفضله القدمات
إيما أمة بجاهك لا ذات . . . أمنت ما يقوله السفهاء

■ وقول الشيخ محمد الجمالي الحلبي:

يا ملاذى يا منجدى يا منائى . . . يا معاذى يا مقصدى يا رجائى
يا نصيرى يا عمدتى يا مجيرى . . . يا خفيرى يا عدتى يا شفائى
أدرك أدرك أغث أغث يا شفيعى . . . عند ربى واعطف وجد بالرضاء

■ وقول الشيخ يوسف النبهانى:

كل وصف في العالمين جميل . . . لك مهما تعدد الأسماء
فلك الحمد يا محمد يا أحمد . . . من كل حامد والثنايا
وأجرنى وعترتى من زمانى . . . فدواهيه كلها دهيا

■ وقول الإمام الصرصرى:

وسل الله عنده وتوسل . . . فبذاك الضريح تمحى الذنوب
يا رسول الإله كن لى مغيثاً . . . فى أمورى لعل قلبى يثوب

■ شيخ الإسلام ابن دقيق العيد (ت ٧٠٢ هـ).

يا رسول المليك دعوة من زا . . . د به شوقه وصح وداده
لك أشكو حالاً من الدين والدن . . . يا شديد غلوه واقتصاده

■ شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني:

يا سيد الرسل الذي فاق الورى . . . بأساً سما كل الوجود وجوداً
هذى ضراعة مذنب متمسك . . . بولانكم من يوم كان وليداً

- يرجو بك المحيا السعيد وبعثه . . . بعد الممات إلى النعيم شهيداً
- وقول الإمام كمال الدين بن الزملكاني الشافعي ت ٧٢٧هـ وهو الذي ناظر ابن تيمية وحاوره وأفحمه وألف كتاباً في الرد عليه:
- يا صاحب الجاه عند الله خالقه . . . ما ردّ جاهك إلا كل أفاك
- أنت الوجيه على رغم العدا أبداً . . . أنت الشفيع لفتاك ونساک
- يا فرقة الزيف لا لقيت صالحة . . . ولا شفى الله يوماً قلب مرضاك
- ولا حظيت بجاه المصطفى أبداً . . . ومن أعانك في الدنيا ووالاك
- ها قد قصدتك أشكو بعض ما صنعت . . . بى الذنوب وهذا ملجأ الشاکی
- وقول الإمام السيوطي:

يا أكرم الرسل يا من في إشارته . . . حوز المنى وبلوغ القصد من أمم

يا صاحب العلم الهادي لقاصده . . . حسن البيان أجرني في حمى العلم

فمطلبى أنت أولى في النجاح له . . . وأنت أدري به يا مسبغ النعم

ومن يلدّ بحماه وهو ملجؤنا . . . فلا اعتراض بما يخشاه من نقم

وهذه قطرة من بحر لا ساحل له فكل ما نقلته عن هؤلاء الأئمة أبيات معدودة من قصائد طويلة كلها توسل بالحبيب ﷺ ومن أراد المزيد فليرجع لكتاب شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق ﷺ ومن أراد المزيد من معرفة العلماء الذين توسلوا والصيغ التي توسلوا بها وبالتحديد بالجزء ورقم الصفحة فليرجع لكتاب أخطاء ابن تيمية في حق رسول الله ﷺ وأهل بيته للدكتور محمود السيد صبيح فقد أجاد فيه وأفاد.

فهؤلاء العلماء والأئمة المحققون يتوسلون برسول الله ﷺ بعد انتقاله ويستغيثون بجنابه لم يقل أحد منهم لا يتوسل به بعد انتقاله كما قال المبتدعون الذين قالوا: لا يجوز ذلك وكلمة لا يجوز معناها التحريم وما دليل التحريم عندكم؟ يقولون ما فعله رسول الله ﷺ ولا الصحابة ولا العلماء السابقون. وهذا كذب صريح وافتراء على الله عز وجل فرقوا به شمل الأمة ومزقوا صفوفها حتى لقد قرأت أن أحد أئمة

المساجد قال على المنبر: أى إنسان عنده كتاب فتح الباري فليحرقه وإلا فهو كافر مشرك، وسمعت بأذنى هاتين من أحد أئمة المساجد أيضاً قوله: كل كلام الشيخ الشعراوي شرك بالله لأنها حلقات مسجلة في مساجد بها أضرحة. فإننا لله وإنا إليه راجعون وحسبنا الله ونعم الوكيل في هؤلاء الخوارج الذين ورثوا جدهم "ذى الخويصرة".

شبهات والرد عليها

الشبهة الأولى:

الكلام في موضوع المدد: قالوا أن قائل هذه الكلمة للنبي أو الولي مشرك شرك أكبر".

أصل الكلمة لغة: مد أى طولَ تقول: مد الحرف يمد مدّاً طولهُ، مدَّ الله الأرض يمدّها مدّاً أى بسطها وسواها ففى الكتاب ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾^(١) وفيه ﴿وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا﴾^(٢) ويقال: مددت الأرض مدّاً إذا زدت فيها تراباً أو سماداً من غيرها ليكون أعمر لها وأكثر ريعاً لزرعها، والرجل مدَّ بصره إلى الشيء أى طمح به إليه قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْدَنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ﴾^(٣)، وأمدّ في الأجل: أنساه فيه، ومدّه في الغى والضلال يمدّه مدّاً ومدّ له: أملى له وتركه.

والمدّ: كثرة الماء، والمدد: ما مدّهم به أو أمدّهم، واستمده: طلب منه مدداً، والمدد العساكر التى تلحق بالمغازى في سبيل الله^(٤).

فالممدد هو الزيادة وهو العطاء، فإذا ما تأملنا حقيقة هذه الكلمة نجد أنها إذا نسبت إلى الله سبحانه كانت حقيقة في الفضل والعطاء، خلقاً وإيجاداً وإذا نسبت لمخلوق كانت مجازاً فلو قلنا أن الرجل الغنى يمد الفقير بما يحتاجه صح ذلك مجازاً. وهذه الكلمة يقولها بعض الناس للمخلوق الحى أو الميت فيا ترى هل في ذلك إثم أم لا؟ فنقول وبالله التوفيق:

بأن المدد حقيقة من رب العباد سبحانه وتعالى وحده لا شريك له لكن هذا العطاء الربانى أنزله الله سبحانه وتعالى على صورتين:
الصورة الأولى:

(١) سورة الانشقاق من الآية/٣.

(٢) سورة ق الآية/٧.

(٣) سورة طه الآية/١٣١.

(٤) لسان العرب ١٣ / ٥١.

عطاء مادي ملموس ومحسوس وهذا يتمثل في النعم المادية مثل الذهب والفضة والمال والأولاد، قال تعالى: ﴿وَيَمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾^(١) وقال: ﴿أَتُمِدُّونَ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ﴾^(٢) وهذا العطاء المادي المحسوس يعطيه الله سبحانه وتعالى للمسلم والكافر، للبر والفاجر، للمطيع والعاصي، فإذا أعطى الله المال لغنى مسلم فليس له وحده وإنما له وللفقير المسلم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾^(٣) وقال ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا...﴾ الآية^(٤)، إذن رزق الفقير في مال الغنى فلا بد أن يطلبه منه إن كان عاجزاً عن الكسب ولم يبادره انغنى بالعطاء فهنا وقفة وهى أن الفقير لو قال للغنى اعطني فلا إثم عليه ولا ذنب في ذلك فتحمل هذه اللفظة على المعنى المجازى أى كن سبباً في عطائي ورزقي لأن المعطى حقيقة هو الله عز وجل وما المخلوق إلا سبب فهذا المسلم الفقير مفطور في قلبه أن المال مال الله والغنى مستخلف فيه حتى ولو لم يتلفظ بذلك قال تعالى: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾^(٥) وقال: ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾^(٦) متى يكفر المسلم الفقير؟

إن اعتقد أن هذا المال الذي عند الغنى حصله واكتسبه بقدرته وإرادته بدون مشيئة الله وبغير إذنه سبحانه، وفي استطاعته أى الغنى أن يعطيه حتى بدون إذن الله أو يمنعه حتى ولو أراد الله أن يعطيه عند ذلك نتوقف فإن كان جاهلاً فيعلم برفق والله غفور رحيم، وإن كان عالماً بذلك أو بين له خطأ هذا الاعتقاد فأصر على ما يعتقد هنا يحكم عليه بالكفر وأقول مستحيل والحمد لله تجد فقيراً يعتقد هذا الاعتقاد

(١) سورة نوح الآية / ١٢.

(٢) سورة النمل الآية/٣٦.

(٣) سورة المعارج الآيتان ٢٤، ٢٥.

(٤) سورة التوبة الآية / ٦٠.

(٥) سورة النور الآية/ ٣٣.

(٦) سورة الحديد الآية/٧.

الفاسد، لأن الإيمان فطرة في القلب فيعتقد جميع المسلمين أن الله سبحانه هو المعطى الحقيقي وهو الفاعل الحقيقي وما المخلوق إلا سبب فقط فهو يردد دائماً وأبداً صباحاً ومساءً أنه لا حول ولا قوة إلا بالله" فهو عالم ومتيقن أن الله هو الغنى وهو النافع وهو الضار وهو المعطى وهو المانع، وهو القابض وهو الباسط إلخ صفاته سبحانه وما العبد والمخلوق إلا سبب فقط مثل الطبيب ما هو إلا سبب في الشفاء والشافى هو الله سبحانه وتعالى.

الصورة الثانية:

وهي عطاء مغنوى روحانى نورانى محسوس بالقلب والروح وهذا النوع من العطاء لفئة خاصة وهم الصفوة من عباده وهم الصالحون فقط لأن هذا الشيء غال ونفيس فلا يعطيه الله إلا لأصحاب الطاعة الخالصة وهم الرسل والأنبياء والأولياء لذلك فبقية عوام المسلمين فقراء في هذا النوع من العطاء والدليل على ذلك أن إخلاص المسلم العادى ليس بإخلاص سيدنا رسول الله ﷺ بل ليست هناك نسبة بين إيمان الحبيب ﷺ وإيمان غيره من البشر، وكذلك تقواى ليست تعادل تقوى سيدنا الحسين فهم أغنياء في هذا ونحن فقراء فيه ومن حق الفقير أن يطلب من الغنى فعطأوهم نورانى روحانى وليس دراهم ولا دنائير، ومن هنا يقول المسلم مدد يا رسول الله أو مدد يا آل البيت بمعنى مدونا مما أمركم الله وأفاض به عليكم معتقدين أن ما عند الأنبياء والرسل والأولياء من عند الله سبحانه وتعالى قال جل شأنه ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ (١) فأى ذنب في هذا وهم يعتقدون أن الله عز وجل هو المعطى وما الرسل والأنبياء والأولياء إلا سبب فقط في هذا العطاء النفيس، فإذا حكمت على قائل ذلك بالكفر فاحكم على نظيره الذي مد يده لغنى لعطاء مادى بالكفر كذلك، وإذا قلت: المدد من الله فلا أطلبه إلا منه سبحانه قلت لك: هذه حقيقة لكنك أسأت الأدب لأنك لم تأخذ بالأسباب التى شرعها الله وسنها في كونه مثلك في ذلك كمثّل رجل

احتاج ألف دينار فطلبها من الله مباشرة دون أخذ بالأسباب وهذا حمق ولن يصل إلى مراده بل يتهمه الناس بالجنون، فله سنة لا بد أن تتبع، فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ولا دنانير، فأغنياء الصورة الأولى الغنى المادى، وأغنياء الصورة الثانية الغنى الروحانى وهذا وذاك مدد وعطاء من عند الله سبحانه، قال جل شأنه: ﴿كُلَّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾^(١)، وقال رسول الله ﷺ إن الله يعطى الدنيا لمن يحب ومن لا يحب ولكنه لا يعطى الدين إلا لمن أحب^(٢)، ولذلك وبهذا المعنى جاءت هذا الكلمة "مدد".

على أسنة الأولياء والصالحين وكبار العلماء المخلصين ومنهم على سبيل المثال:

✽ الشيخ بكرى الصدفى مفتى الديار المصرية، ورأس السادة الحنفية حيث قال في تقييده لكتاب شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق ﷺ للشيخ يوسف النبهانى ص: ١٣ قال: فجزى الله مؤلفه خيراً وأجزل له من أحسانه أجراً، وأمدنا جميعاً بمدد سر الوجود وإمام كل موجود ﷺ.

✽ العلامة المؤرخ ابن العماد الحنبلى المتوفى سنة ١٠٨٩هـ في كتابه شذرات الذهب ٣٤٦/٥ تحت حوادث سنة ٦٧٥هـ في ترجمة سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه قال: وكان عبد العال يأتية بالرجل أو الطفل فينظر إليه فيملأه مدداً.

✽ الإمام الكبير والعالم العلامة شيخ الإسلام إبراهيم البيجورى في كتابه "حاشية البيجورى على شرح ابن قاسم الغزى على متن أبى شجاع في مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه قال في جـ ٢٥٥/١ في أبواب غسل الميت وقد ذكر سيدى أحمد البدوى فقال: أمدنا الله من مدده".

(١) سورة الإسراء الآية/٢٠.

(٢) أحمد جـ ٥/ ٢٤٦ رقم ٣٦٧٢ بتحقيق الأستاذ أحمد شاكر وقال المحقق: اسناده ضعيف والحاكم فى المستدرك كتاب الإيمان جـ ٨٨/١ رقم ٩٤ وصححه ووافقه الذهبى.

وقال أيضاً في آخر الجزء الثاني من نفس الكتاب جـ ٢/٤٠٩ وقد حصلت في هذه الكتابة بركة بسبب أني كتبت بعض العبارات في الحرم المكي تجاه الكعبة المشرفة زادها الله تشريفاً وتكريماً ومهابة وتعظيماً، وكذلك كتبت بعض عبارات في الحرم المدني بجانب منبر رسول الله ﷺ ورزقنا العود إليه وأقول عنده ولديه: مددك يا رسول الله ﷺ، مددك يا رسول الله ﷺ، مددك يا رسول الله ﷺ، وأقول أيضاً: مددكم يا أهل البيت رضي الله تعالى عنكم، مددكم يا أهل البيت رضي الله تعالى عنكم، مددكم يا أهل البيت رضي الله تعالى عنكم، مددكم يا أهل البيت رضي الله تعالى عنكم أجمعين.

❖ الإمام الآلوسی في تفسيره لسورة النازعات في أولها قال: وقيل: إقسام بالنفوس الفاضلة حالة المفارقة لأبدانها بالموت فإنها تنزع عن الأبدان غرقاً أى نزعاً شديداً من أغرق النازع في القوس إذا بلغ غاية المدى حتى ينتهى إلى النصل لعسر مفارقتها إياها حيث ألفته وكان مطية لها لاكتساب الخير ومظنة لازدياده فتتنشط شوقاً إلى عالم الملكوت وتسبح به فتسبق به إلى حظائر القدس فتصير لشرفها وقوتها من المدبرات أى ملحقة بالملائكة، أو تصلح هى لأن تكون مدبرة كما قال الإمام: إنها بعد المفارقة قد تظهر لها آثار وأحوال في هذا العالم، فقد يرى المرء شيخه بعد موته فيرشده لما يهيمه وقد نقل عن جالينوس أنه مرض مرضاً عجز عن علاجه الحكماء فوصف له في منامه علاجه فأفاق - أى استيقظ - وفعله - فأفاق أى شفى وقد ذكره الغزالي. ولذا قيل وليس بحديث كما توهم: إذا تحيرتم في الأمور فاستعينوا من أصحاب القبور" أى أصحاب النفوس الفاضلة المتوفين، ولا شك في أنهم يحصل لزائرهم مدد روحاني ببركتهم، وكثيراً ما تنحل عقد الأمور بأنامل التوسل إلى الله تعالى بحرمتهم^(١).

وقال أيضاً: لا ينبغي التوقف في أن الله تعالى قد يكرم من شاء من أوليائه بعد الموت كما يكرمه قبله بما شاء فيبرئ سبحانه المريض وينقذ الغريق وينصر

على العدو وينزل الغيث وكيت وكيت كرامة له، وربما يظهر عز وجل من يشبهه صورة فتفعل ما سئل الله تعالى بحرمة مما لا إثم فيه استجابة للسائل^(١).

الإمام العالم العلامة سيدى عبد الوهاب الشعرانى في كتابه الكبريت الأحمر وهو مطبوع على هامش كتابه اليواقيت والجواهر قال في ص: ١٠، ١١ "وأما القطب الواحد فهو روح سيدنا محمد ﷺ الممد لجميع الأنبياء والرسل والأقطاب من حين النشئ الإنسانى إلى يوم القيامة". قلت: هو ممد لا باستقلاله وإنما بالله وبإذنه ومشينته حتى لا يظن متنتع أن هذا شرك.

وقال أيضاً: وأما يحيى فله تردد بين عيسى وهارون فمدد كل بدل يتنزل من حقيقة نبي من هؤلاء الأنبياء.

د سعيد أبو الاسعاد في كتابه سبل الخيرات والذي قدم له أ. د على جمعه مفتى الجمهورية عقد فيه باباً باسم الشرعة والعبرة في قول "مدد ونظرة" وشرح فيه ذلك وذكر فيه أبياتاً للأستاذ محمد زكى ابراهيم قال فيها:

- | | | |
|-------------------------|----|---------------------------------------|
| أتسخر منا لقول "مدد"؟ | .. | ولست الفقيه ولا المجتهد |
| أتسخر منا بلا حجة | .. | وقد قال ربك كلا نمد |
| عطاء رخاء تجلى به | .. | وكل عليه به يعتمد |
| فقيم الملام وفيم الخصام | .. | وليس المعقد كالمعتقد |
| فقد نتأول إذ نرتجى | .. | وقد نتوسل إذ نستمد |
| تجاربنا حجة بيننا | .. | وما من أفاد كمن لم يفد ^(٢) |

السيد صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ صالح أحمد الشافعى أبو خليل رضى الله عنه وأرضاه صاحب الأحوال والكرامات شيخى وأستاذى في حنايه كشف الغطاء

(١) تفسير الآلوسى لسورة النازعات جـ ١٤ / ٣١٠.

(٢) سبل الخيرات ص / ١٦١ - ١٦٤.

عن أهل البلاء" عقد فيه باباً عنوانه: الإلهام والمدد^(١) أجاد فيه وأفاد رضي الله عنه وأرضاه وغمرنا بمدده وأسراره.

❖ د/عيسى بن عبد الله بن مانع الحميري مدير عام دائرة الأوقاف والشئون الإسلامية بالإمارات وعميد كلية الإمام مالك للشريعة والقانون بدبي في كتابه القيم "التأمل في حقيقة التوسل قال في سياق شرحه لآيات من سورة التين، وفي هذه الآية يعنى "إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون" قال: في هذه الآية إشارة إلى جواز التوسل بالصالحين بعد موتهم لعدم انقطاع مددهم^(٢).

❖ د/ محمود السيد صبيح في كتابه القيم "أخطاء ابن تيمية في حق رسول الله ﷺ وأهل بيته" عقد باباً بعنوان "الرد على ابن تيمية في منعه طلب الاستغفار من رسول الله ﷺ عند زيارة القبر الشريف والتوسل والاستغاثة وطلب المدد"^(٣).

❖ أ.د/ جوده المهدي أستاذ التفسير وعلوم القرآن الكريم وعميد كلية القرآن الكريم بطنطا في كتبه كلها على سبيل المثال كتاب أعلام الصوفية في ترجمة الغزالي حجة الإسلام ص: ٣٩٥ قال: أسأل الله العلى القدير أن يفيض علينا من بركاتكم في الدنيا والآخرة وأن يمدنا بمددكم ويحشرنا في معيتكم في زمرة عباده المقربين.

فهذا قليل من كثير وما اعترض المعترضون إلا بسبب جهلهم للحقيقة وحسدهم لأهلها فقد انشغلت قلوبهم بالدنيا وعزفت عن الآخرة كما قال القائل:

كضرائر الحسناء قلن لوجهها . . . بغياً وحسداً إنه لدميم

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه . . . فالقوم أعداء له وخصوم

نسأل الله أن يهدينا جميعاً للهدى والنور

❖ شبهة: المساجد التي بها قبور. روى البخاري قال:

(١) كشف الغطاء ص: ٢٤٤.

(٢) التأمل في حقيقة التوسل ص: ١٨٢.

(٣) أخطاء ابن تيمية في حق رسول الله ﷺ وأهل بيته ص: ٣٠٤.

١ - لما مات الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهم - ضربت امرأته القبة على قبره سنة ثم رفعت، فسمعوا صائحا يقول: ألا هل وجدوا ما فقدوا؟ فأجابه الآخر: بل ينسوا فانقلبوا.

- وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال في مرضه الذي مات فيه: لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجداً . قالت: ولولا ذلك لأبرزوا قبره غير أني أخشى أن يتخذ مسجداً^(١).

✽ قال شيخ الإسلام ابن حجر: وجه التعليل أن الوعيد على ذلك يتناول من اتخذ قبورهم مساجداً تعظيماً ومغالة كما صنع أهل الجاهلية وجرهم ذلك إلى عبادتهم. فقول البخاري (..... وما يكره من الصلاة في القبور) قال ابن حجر: يتناول ما إذا وقعت الصلاة على القبر، أو إلى القبر أو بين القبرين، وفي ذلك حديث مسلم: لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها أو عليها. وقول البخاري: (ورأى عمر أنس يصلي عند القبر فقال: القبر القبر ولم يأمره بالإعادة) فالنهي عن ذلك لا يقتضي فساد الصلاة فأنس لما قال له عمر ذلك جاز القبر وصلى وفي رواية فتنحيت عنه^(٢). قال الحافظ: حمل بعضهم الوعيد على من كان في ذلك الزمان لقرب العهد بعبادة الأوثان، وأما الآن فلا. وقد رد هذا ابن دقيق العيد^(٣).

وقال الحافظ: ترجم البخاري: باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور^(٤) وترجم بعده باب بناء المسجد على القبر^(٥) قال ابن رشيد: بعض الأخاذ لا يكره فكأنه يفصل بين ما إذا ترتبت على الإتيان مفسدة أم لا، وقوله (ضربت امرأته

(١) أخرجه البخاري في الجنائز باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور ٢٣٨/٣ رقم ١٣٣٠.

(٢) ، (٢) فتح الباري ١/٦٢٤ - ٦٢٦.

(٤) فتح الباري ٣/٢٣٨.

(٥) فتح الباري ٣/٢٤٧.

القبه على قبره سنة) قال ابن حجر: المقيم في الفسطاط يعنى الخيمة أو القبّة لا يخلو من الصلاة هناك^(١).

ثم قال ابن حجر: المنع من ذلك إنما هو حال خشية أن يصنع بالقبر كما صنع أولئك الذين لعنوا وأما إذا أمن ذلك فلا امتناع، وقد منع مطلقاً من يرى سد الذريعة^(٢).

ثم نقل قول البيضاوى: لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً لشأنهم ويجعلونها قبله يتوجهون في الصلاة نحوها واتخذوا أوثاناً لعنهم الله ومنع المسلمين عن مثل ذلك، فأما من اتخذ مسجداً بجوار صالح وقصد التبرك بالقرب منه لا التعظيم له ولا التوجه نحوه فلا يدخل في ذلك الوعيد^(٣). ونقل هذا أيضاً العلامة السمنودى ثم قال: كيف وقد قال الله تعالى فى أهل الكهف: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾^(٤) قال العلامة الخفاجى: في هذه الآية دليل على اتخاذ المساجد على قبور الصالحين وقد ذكر المفسرون أن الذين غلبوا على أمرهم هم المؤمنون^(٥).

قلت: خلاصة الأمر أن الصلاة جائزة في المساجد التى بها أضرحة بشرط ألا يصلى فوق الضريح ولا يتوجه إليه بقلبه أو في نيته ولا بقلبه تاركاً جهة القبلة فإن صلى متجهاً إلى القبلة وكان القبر في جهتها مصادفة ولم يكن في قلبه ولا في نيته تعظيم هذا المقبور ولا الاعتقاد فيه ما يعتقد في الله فلا شئ في ذلك ولا يكون داخلاً في الوعيد المذكور.

(١) فتح البارى ٢٣٨/٣.

(٢) فتح البارى ٢٤٧/٣.

(٣) فتح البارى ٦٢٦/١.

(٤) سورة الكهف الآية/٢١.

(٥) سعادة الدارين ١٤٥/١.

وقد كانت السيدة عائشة رضي الله عنها تنسئ في حجرتها بجوار قبر الرسول ﷺ ولم ينكر عليها أحد من الصحابة أو لم يخرجوها من تلك الحجرة بعد أن دفن فيها رسول الله ﷺ.

وقد أخرج ابن حبان في صحيحه بإسناد حسن عن عبيد الله بن عبد الله قال: رأيت أسامة بن زيد يصلي عند قبر رسول الله ﷺ فخرج مروان بن الحكم فقال: تصلي إلى قبره؟ فقال: أنى أحبه الحديث^(١) وأيضاً هذه القبور التي بالمساجد لا يصلي فوقها أحد كما أنها محاطة بعدة موانع خشبية كانت أو نحاسية أو فضية فكل ضريح محاط بعدة موانع.

وكذلك أرى أنه لا يوجد مسلم على وجه الأرض مهما كان جاهلاً واعتقد في ضريح أو ولي أنه يستحق العبادة مع الله سبحانه وتعالى أو من دون الله أو ينفع أو يضر أو يعطي أو يمنع باستقلاله عن الله ومن غير إرادة الله وإذنه ومشيئته.

أما قياس ذلك على "ودّ وسواع" فهو قياس غريب عن موطن النزاع كما قال الأستاذ محمد زكي إبراهيم حيث قال: والاحتجاج على منع التوسل بالموتى بقصة "ودّ وسواع" احتجاج بما هو غريب عن موطن النزاع فلا يلتفت إليه لأن المغالطة شيء غير العلم الصحيح، ولسد الذرائع قواعد وشروط لا يتحقق منها هنا شيء.

"فود وسواع" عبدهم الناس حيث لا دين ولا كتاب ولا سنة ولا علم وقد مضى على كبار الصحابة والتابعين وكبار الأولياء عشرات المئات من السنين لم يصل أحد لهم ركعة ولم يتخذهم أحد أرباباً من دون الله لوجود العلم والدين والكتاب والسنة^(٢) وقال أ.د/ جودة المهدي:

فلا تثريب على المسلمين فيها بل هي مستحبة لاشتغالها على رياض الجنة طالما لا يصلى فوق القبور ولا إليها بأن يتخذ قبلة للصلاة، وهذا لم ولن يفعله أحد

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه كتاب الحظر والإباحة باب الاستماع المكروه جـ ١٢ / ٥٠٦ رقم

(٢) الإفهام والإفهام ص: ١٩.

من المسلمين ببركة سيد المرسلين ﷺ فإنه لا يوجد ضريح في مسجد إلا وهو محاط بمقصورة من نحاس أو خشب للحيلولة بين المصلين وبين الأضرحة وبمنطق الشرع والعقل أقول: أنه لو حرمت الصلاة في كل مسجد مشتمل على قبر أو ضريح لحرمت الصلاة بالمسجد الحرام لوجود قبر سيدنا إسماعيل وأمه السيدة هاجر باتفاق العلماء فضلاً عن كثير من الأنبياء دفنوا بين زمزم والحطيم، ولحرمت الصلاة بالمسجد النبوي لوجود قبره ﷺ وقبرى سيدنا أبى بكر وعمر رضي الله عنهما، ولا يقال إن إدخال القبر الشريف في المسجد كان من بعده مما يسقط الاحتجاج بذلك لأنه أدخل في القرن الأول على عهد ولاية الوليد بن عبد الملك بين سنتي ٨٨، ٩٣ هـ ولم يزل آنذاك صحابة للنبي ﷺ أحياء ولم يؤثر عنهم إنكار ذلك، وكذلك لو حرمت الصلاة بالمساجد المشتملة على قبور لحرمت في المسجد الأقصى المشتمل على العديد من قبور أنبياء بنى اسرائيل وتلك هي المساجد الثلاثة التي تشد الرحال إليها أفنحرم الصلاة فيها وفي آلاف المساجد في شتى بقاع الأرض بدوافع بدعية مارقة عن الصواب؟؟ كلا ثم كلا^(١).

وقال الشيخ الكوثري: قال أبو عبد الله محمد للأبى المالكى في شرح صحيح مسلم ٢/٢٣٤ قال بعض الشافعية: كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء ويجعلونها قبلة يتوجهون إليها في السجود فاتخذوها أوثاناً فمنع المسلمون من ذلك بالنهي عنه، فأما من اتخذ مسجداً قرب رجل صالح أو صلى في مقبرته قصداً للتبرك بآثاره وإجابة دعائه فلا حرج في ذلك واحتج لذلك بأن قبر إسماعيل عليه السلام في المسجد الحرام عند الحطيم، ثم إن ذلك الموضع أفضل مكان للصلاة فيه.

■ وقال الشيخ عبد الغنى النابلسي في الحديقة الندية ٢/٦٣١ وأما من اتخذ مسجداً في جوار صالح أو صلى في قبره وقصد به الاستظهار بوجهه أو وصول أثر من آثار عبادته إليه لا للتعظيم له والتوجه إليه فلا حرج إذ مرقد إسماعيل عليه

السلام عند الحطيم من المسجد الحرام ثم إن ذلك الموضع أفضل مكان يصلى فيه. كذا في شرح المصابيح.

■ وقال عبد الغنى النابلسي أيضاً في كتابه المذكور ٦٣٠/٢ في بحث إيقاد الشموع على القبور: وهذا كله إذا خلا من فائدة، وأما إذا كان موضع القبور مسجداً أو على طريق أو كان هناك أحد جالس أو كان قبر ولى من أولياء الله أو عالم من المحققين تعظيماً لروحه المشرقة على تراب جسده كإشراق الشمس على الأرض إعلماً للناس أنه ولى ليتبركوا به ويدعوا الله عنده فيستجاب لهم فهو أمر جائز لا منع منه والأعمال بالنيات.

وفى المدونه ٩٠/١ لابن القاسم: هل كان مالك يوسع أن يصلى الرجل وبين يديه قبر يكون سترة له قال: مالك لا يرى بأساً بالصلاة في المقابر، وهو إذا صلى في المقبرة كانت القبور بين يديه وخلفه وعن يمينه وشماله. قال: وقال مالك: لا بأس بالصلاة في المقابر قال: وبلغنى أن بعض أصحاب النبى ﷺ كانوا يصلون في المقبرة^(١).

وقال الشيخ محمد متولى الشعراوى رحمه الله عندما سئل عن زيارة أهل البيت وأولياء الله الصالحين والصلاة في المساجد التى بها أضرحة. قال: نحن نشأتنا نشأة ريفية وطول عمرنا عايشين في رحاب أهل البيت ورحاب الأولياء. آبائنا وأجدادنا وأمهاتنا وأخواتنا. كلنا عشنا في رحاب الأولياء. ما رأينا الخير إلا منهم ما عرفنا العلم إلا في أماكنهم. ما عرفنا البركة إلا في اتصال الود بهم. أحببناهم لأنهم موصولون بالله جاءنا الخبر ممن نؤكد صدقه أنهم موصولون بالله ولا يعرفهم إلا الناس الذين انكسرت نفوسهم لمنهج الله.

ثم قال رداً على المعترضين على زيارة قبورهم ويقولون أنها غير واردة: كيف تبيحون زيارة القبور لعامة المسلمين ثم تحاولون أن تحرموها على من علم عنهم أنهم ناس صالحون؟ كيف؟ كيف؟

زيارة القبور مأمور بها فإذا كان هذا الحق مأخوذ لعامة المسلمين ... فهل آتى لواحد معروف عنه أو تواتر التاريخ بأنه رجل طيب.. فأحرم زيارة قبره لأنه رجل طيب؟ هذا كلام غير معقول.

ثم قال: هبه قبراً من القبور أذكر الله عنده. نحن لا ننتقد الزيارة.. ولكن ننتقد الذي يحدث عندها فالذي يطلب منهم شيئاً نقول له: هذا شرك. قلت: إلا إذا كان يعتقد أنهم يعطونه مطلوباً بإذن الله وبمشيئته لا باستقلالهم عنه سبحانه فهذا ليس شركاً.

وأما أن نطلب الله عندهم فما يمنع؟ ثم قال الشيخ: أنا في هذا الموضوع وأقسم بالله لو لم يكن في الزيارة إلا أنها ملتقى للمتكسرين في الله لكفى. لو لم يكن فيها غير أننى ألتقى بالناس الذين أسرفوا على أنفسهم ورجعوا إلى حظيرة الله.. ولم يجدوا اعتاباً سوى هذه الاعتاب لكفى.

وقال: أنا بأروح ألقى ناساً تركوا الدنيا وتخلوا عنها. الذي يذهب لزيارة الحسين أو السيدة نفيسة أو السيد البدوي أو إبراهيم الدسوقي يستحى بعد ذلك من المعصية.. وربما أصبح هذا الاستحياء أمراً يصاحبه طول حياته^(١).

وقال عن المساجد التي بها أضرحة: بنوا إسرائيل لعنهم الله اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد فهم اتخذوا من القبر نفسه مسجداً، لكن نحن لا يوجد عندنا هذا.. القبر عندنا معزول ومجاط بسور نسميه "المقصورة" إذن نحن لم نجعل القبر مسجداً والاستشهاد بما يفعله بنوا إسرائيل هو الخطأ فنحن نصلى بعيداً عن المقصورة. ونحن لنا في المسجد النبوي أسوة حسنة.

(١) الشعراوي أنا من سلالة أهل البيت ص: ١٨٢ - ١٨٣.

فنحن نصلى في الروضة الشريفة والقبر على يسارنا، ونصلى فى منزل الوحي والقبر على يميننا ونصلى في الحضرة الشريفة والقبر وراءنا .. ونصلى فى الصفة والقبر أمامنا كل هذا والقبرية ليست ملحوظة، وقد مر ذلك على علماء المسلمين من يوم أن مات رسول الله ﷺ ولم ينكر أحد من علماء المسلمين مثل هذا الموقف، وإذا قيل إن ذلك خصوصية لمسجد رسول الله ﷺ نقول لهم: فيه أبو بكر وفيه عمر^(١). أ هـ.

قلت: المسجد الحرام فيه أنبياء قد دفنوا ما بين الحجر إلى الركن اليماني ويدل على ذلك حديث الطبراني عن ابن عباس ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب رسول الله ﷺ ما سألوا إلا عن ثلاث عشرة مسألة .. الحديث وفي آخره، وأول من طاف بالبيت الملائكة وأن ما بين الحجر إلى الركن اليماني لقبوراً من قبور الأنبياء كان النبي إذا آذاه قومه خرج من بين أظهرهم فعبد الله فيها حتى يموت^(٢).

(١) المصدر السابق ص: ١٨١.

(٢) أخرجه الطبراني فى الكبير ٤٥٤/١١ رقم ١٢٢٨٨

إذا سألت فاسأل الله

■ حديث ابن عباس رضي الله عنهما: كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال: يا غلام إنى أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف^(١).

يظن بعض أدعياء العلم أن هذا الحديث ينفي التوسل وينفي الاستعانة بالصالحين وهو فهم سقيم مستدلين بقوله ﷺ "إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله" والمعنى الصحيح أى لا تسأل غير الله سبحانه وتعالى معتقداً فيمن تسأله أن ذلك المسئول يستطيع أن يعطيك خيراً أو يمنع عنك ضرراً بذاته استقلالاً من دون الله فهذا هو المنهى عنه أما إذا سألته معتقداً أنه يفعل بفضل الله تعالى وبإذنه وبمشيئته وإرادته فلا شئ في هذا لأن الأمر بيده سبحانه ولولاه ما استطاع العبد أن يفعل شيئاً فالله تعالى هو المسئول حقيقة والعبد هو المسئول مجازاً أو سبباً فقط، وكذلك الاستعانة فيجوز أن تستعين بال مخلوق تسبباً وكسباً فقط معتقداً أن هذا المخلوق لا ينفع ولا يعين استقلالاً بذاته وإنما بالله وإذنه وإرادته ومشيئته فالله معين خلقاً وإيجاداً والمخلوق معين تسبباً وكسباً فقط وهذا المعنى هو الذي يتناسب مع نهاية الحديث فقد أثبت الحديث نفعاً وضرراً للمخلوق على جهة التسبب والكسب فقط في قوله ﷺ واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك ... إلخ وهذا المعنى هو الذي يتلاءم مع الآيات القرآنية مثل قوله تعالى: "فاسألوا أهل الذكر أن كنتم لا تعلمون" فقد أمرت الآية بسؤال المخلوق أى تسبباً وكسباً للعلم فقط والمسئول حقيقة هو الله عز وجل لأنه هو المعطى خلقاً وإيجاداً، وكذلك الاستعانة

(١) أخرجه الترمذى: كتاب صفة القيامة باب ٥٩ ج٤/ ٥٧٥ رقم ٢٥١٦ وقال: حسن صحيح.

وأحمد فى المسند ٢٩٣/١ وإسناده صحيح.

حقيقة بالله تعالى لأنه سبحانه هو المعين خلقاً وإيجاداً على وجه الحقيقة وتكون بالخلق تسبباً وكسباً على وجه المجاز ومنه قوله تعالى "أعينوني بقوة" فقد طلب العون من المخلوق سبباً فقط وقوله ﷺ: استعن بيمينك، وقوله "استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان"، وقوله: "استعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة"، وقوله "والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه" وغير ذلك من أحاديث كثيرة وعلى ذلك فالمريض يستعين بالطبيب على المرض، والذي سرق متاعه يستعين بالشرطي على اللص والمسافر يستعين بالسيارة على مشقة الطريق والرجل يستعين بالملابس الثقيلة على شدة البرد والطالب يستعين بالذاكرة على النجاح وهكذا فكلها استعانات بالمخلوق لا تتنافى مع الحديث لأنها أسباب فقط فقولته في الحديث إذا سألت فاسأل الله أى بالطريقة التى شرعها الله عز وجل وهى الأخذ بالأسباب معتقداً أنها لا تجدى إلا بإذن الله وكذلك إذا سألت الصالحين شيئاً فالمعطى هو الله عز وجل وهم أسباب فقط فكل هذا لا يتنافى مع عقيدة التوحيد.

■ حديث أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجد الرسول ﷺ ومسجد الأقصى^(١).

يظن البعض أن النهى هنا على عمومته وليس الأمر كذلك لأنه يلزم من ذلك منع جميع السفر إلا لهذه المساجد الثلاثة فقط ومن هنا تتعطل مصالح العباد وهذا يتنافى مع الشريعة لأنها إنما جاءت لتحقيق مصلحة العباد في الدنيا والآخرة إذن فلا بد من حمل الحديث على منع السفر وشد الرحل إلى أى مسجد غير الثلاثة ويؤيد ذلك أن الاستثناء هنا مفرغ فالمستثنى منه محذوف ولا بد أن يكون من جنس المستثنى فيكون معنى الحديث لا تشد الرحال إلى مسجد من المساجد إلا إلى الثلاثة المذكورة ويؤيد ذلك حديث لا ينبغي للمطى أن تشد رحاله إلى مسجد تبغى فيه الصلاة غير المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدى^(٢). وهذا هو

(١) البخارى: كتاب فضل الصلاة - باب فضل الصلاة فى مسجد مكة والمدينة ٧٦/٣ رقم ١١٨٩.

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند ٦٤/٣ وهو حديث حسن.

المعنى الصحيح أما من أخذ النهى على عمومه فقد أفسد المعنى لسده باب السفر للتجارة وصلة الرحم وطلب العلم وزيارة الصالحين أحياء أو منتقلين، والجهاد، والعلاج، والنزهة، والنكاح، وفى ذلك تعطيل لمصالح العباد^(١)، وإنه لمن العجب العجائب ترى من انطمست بصيرتهم يبيحون جواز شد الرحال لكل ما سبق إلا زيارة قبر النبي ﷺ وزيارة قبور الصالحين وأرى أن ذلك راجع لضغينة في قلوبهم لأحباب الله عز وجل وعلى رأسهم المصطفى ﷺ لدرجة أنهم اتهموا زانريهم بالشرك تنفيراً لهم من هذه الزيارات مع أنها قرينة مستحبة فهذا الاتهام بالشرك مردود على قائله والله يعلم المفسد من المصلح وعند الله تجتمع الخصوم.

ذكر الشيخ السمنودى في كتابه سعادة الدارين: أن الشيخ ولى الدين العراقى قال بأن والده الحافظ زين الدين عبد الرحيم العراقى كان معادلاً للشيخ ابن رجب الحنبلى في التوجه إلى بلد الخليل عليه السلام فلما اقترب ابن رجب من البلد قال: (نويت الصلاة في مسجد الخليل) ليحترز عن شد الرحال لزيارته على طريقة شيخه ابن تيمية. قال الشيخ العراقى: فقلت: نويت زيارة قبر الخليل عليه الصلاة والسلام، ثم قلت له: أما أنت يا ابن رجب فقد خالفت النبي ﷺ لأنه قال: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، وقد شددت الرحل إلى مسجد رابع، وأما أنا فاتبعته النبي ﷺ لأنه قال: زوروا القبور أفعال: إلا قبور الأنبياء؟ فبهت ابن رجب^(٢).

شبهة: الولى ولى لنفسه فقط لا ينفع غيره واستدلوا بقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾^(٣) وقوله ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾^(٤) وحديث: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ... "

(١) بتصرف من فتح البارى ٨٠/٣.

(٢) سعادة الدارين للسمنودى ١٧٢/١.

(٣) سورة الجاثية الآية/١٥.

(٤) سورة الانفطار الآية/١٩.

الحديث^(١)، وحديث "اعمل يا فاطمة فإني لا أغنى عنك شيئاً ... الحديث"^(٢)، وبقوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾^(٣).

والجواب أولاً قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ قال القرطبي: روى عن ابن عباس أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾^(٤) فيحصل الولد الطفل يوم القيامة في ميزان أبيه ويشفع الله تعالى الآباء في الأبناء والأبناء في الآباء يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾^(٥) وقال أكثر أهل التأويل: هي محكمة ولا ينفع أحداً عمل أحد وأجمعوا أنه لا يصلى أحد عن أحد، ولم يجز مالك الصيام والحج والصدقة عن الميت إلا إذا أوصى بالحج عنه ومات جاز أن يحج عنه.

وأجاز الشافعي وغيره الحج التطوع عن الميت وروى عن عائشة رضي الله عنها أنها اعتكفت عن أخيها عبد الرحمن وأعتقت عنه، وروى أن سعد بن عبادة قال للنبي ﷺ إن أمي توفيت أفأتصدق عنها؟ قال: نعم.

وقيل: لام الخفض في قوله "للإنسان" معناها في العربية الملك والإيجاب فلم يجب للإنسان إلا ما سعى فإذا تصدق عنه غيره فليس يجب له شيء إلا أن الله عز وجل يتفضل عليه بما لا يجب له كما يتفضل على الأطفال بإدخالهم الجنة بغير

(١) أخرجه مسلم: كتاب الوصية باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ج ٣/ ١٢٥٥ رقم ١٦٣١. الترمذي: في كتاب الأحكام باب في الوقف ٦٦٠/٣ رقم ١٣٧٦، وأبو داود في الوصايا بابا الصدقة من الميت ١١٧/٣ رقم ٢٨٨٠.

(٢) ابن حبان: الرقائق باب الخوف والتقوى ٤١٢/٢ رقم ٦٤٦ وقال: منسوخ لأن فيه أنه لا يشفع لأحد واختيار الشفاعة كانت بالمدينة.

(٣) سورة النجم الآية / ٣٩.

(٤) سورة الطور الآية / ٢١.

(٥) سورة النساء الآية / ١١.

عمل، وقال الربيع بن أنس ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ يعنى الكافر وأما المؤمن فله ما سعى وما سعى له غيره.

قال القرطبي: وكثير من الأحاديث تدل على هذا القول وأن المؤمن يصل إليه ثواب العمل الصالح من غيره^(١). أ هـ.

قلت: وقال: آخرون: عدم انتفاع المسلم بعمل غيره هذا رأى المعتزله. والإجماع على أن الآية الكريمة نزلت معبرة عما في صحف موسى وإبراهيم عليهما السلام لقوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾^(٢) فهذا في الشرائع السابقة أما في شريعتنا فتحمل على الكافر فلا ينتفع بعمل غيره أو تحمل على أنها على العدل والله تعالى يعامل عباده بالفضل والإحسان والإدلة متضافرة على الانتفاع بعمل الغير سواء كان ذلك العمل قراءة قرآن أو دعاء أو صدقة أو صيام أو حج أو قضاء دين ويستوى في الانتفاع الأحياء والأموات قال المرحوم الشيخ حسنين مخلوف مفتى الجمهورية الأسبق: من اعتقد أن الإنسان لا ينتفع إلا بعمله فقد خرق الإجماع وذلك باطل من وجوه منها:

١- أن جليس أهل الذكر يرحم بهم وهو لم يكن منهم ولم يجلس لذلك بل لحاجه قال تعالى في الحديث القدسى "هم القوم لا يشقى بهم جليسهم"^(٣) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح.

٢- أن الله تعالى قال لنبيه ﷺ ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾^(٤) فالكفار انتفعوا بأن رفع عنهم عذاب الاستئصال وإلى يوم القيامة مع أنهم استعجلوه

(١) تفسير القرطبي ١٧ / ٩٠.

(٢) سورة النجم الآيات / ٣٦ - ٣٩.

(٣) الترمذي: كتاب الدعوات باب ما جاء أن الله ملائكة ... جـ ٥ / ٥٤٠ رقم ٣٦٠٠.

(٤) سورة الأنفال الآية/٣٣.

وطلبوه أى العذاب بقولهم ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ انْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (١).

٣- انتفاع الأبناء بصلاح الآباء قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ (٢) وقال: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٣) فتقوى الآباء خير ما يدخر للذرية. وقال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ (٤) كل هذه الآيات دليل على الانتفاع بعمل الغير.

٤- قيل للنبي ﷺ: إن فريضة الحج أدركت أبى شيخاً كبيراً لا يثبت على الراحلة أفأحج عنه؟ قال: نعم" (٥).

٥- انتفاع من في البرزخ بعمل الأحياء مثل الصلوات على الميت وهى مشتملة على قراءة القرآن والصلاة على رسول الله ﷺ والتكبير والدعاء للميت فهى فريضة تنزل بسببها الرحمة وتقبل لأجلها شفاعاة المصلين كل ذلك ينتفع به الميت مع أنه لا كسب له فيه.

٦- حديث "استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل" (٦).

٧- الحج المفروض والمنذور وكذا الصوم المفروض والمنذور وقضاء الدين كل ذلك يسقط عن الميت إذا فعله عنه غيره وكل ذلك ثابت في الشرع.

٨- استفادة الكفار يوم القيامة من الشفاعاة العظمى لرسول الله ﷺ وانتفاع المسلمين خاصة بها وبغيرها من الشفاعات الأخرى لرسول الله ﷺ ولغيره من الشهداء

(١) سورة الأنفال الآية/٣٢.

(٢) سورة الكهف الآية/٨٢.

(٣) النساء الآية/٩.

(٤) سورة الشورى الآية/٥.

(٥) البخارى: كتاب الحج جـ ٣/ ٤٤٢ رقم ١٥١٣.

(٦) مسلم: الجنائز باب في التكبير على الجنازة ٢/ ٦٥٧ رقم ٩٥١.

والعلماء والأولياء وحملة القرآن الكريم فكل هؤلاء لهم شفاعات تنفع المسلمين يوم القيامة.

وكل هذا من فضل الله عز وجل ولا حرج على فضله سبحانه وتعالى.

وأما قوله تعالى: يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً" فمعناها أى إلا بإذن الله بدليل أحاديث الشفاعة وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾^(١) أى إلا بإذن الله فيأذنه أملك النفع والضرر وبغير إذنه لا أضر ولا أنفع، وحديث إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا ... معناه انقطع عمله هو لنفسه تكليفاً ولم يقل: وانقطع عمل غيره عنه فيستفاد منه أن عمل غيره عنه غير منقطع وهذا فضل الله سبحانه.

وأما حديث يا فاطمة لا أغنى عنك من الله شيئاً ...^(٢) فقد استدل به بعض المالكية أن النيابة لا تدخل في أعمال البر إذ لو جاز ذلك لكان يتحمل عنها ﷺ بما يخلصها فإذا كان عمله لا يقع نيابة عن ابنته فغيره أولى بالمنع. قال ابن حجر: وتعقب بأن هذا كان قبل أن يعلمه الله تعالى بأنه يشفع فيمن أراد وتقبل شفاعته حتى يدخل قوماً الجنة بغير حساب ويرفع درجات قوم آخرين ويخرج من النار من دخلها بذنوبه. قلت: وهذا معنى كلام ابن حبان بعد أن روى هذا الحديث هذا منسوخ والشفاعة نزلت بالمدينة بعدها. وبقية كلام ابن حجر: أو كان المقام مقام تخويف وتحذير أو أنه أراد المبالغة في الحض على العمل ويكون في قوله: "لا أغنى شيئاً" أى إلا بإذن الله^(٣).

(١) سورة الجن الآية/٢١.

(٢) البخارى: فى التفسير: باب قوله تعالى وأنذر عشيرتک الأقربين جـ ٨/ ٣٦٠ رقم ٤٧٧١.

(٣) فتح البارى ٨/ ٣٦١.

المراجع

- الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم تعليق د / يحيى مراد دار الكتب العلمية - بيروت.
- الإستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر تحقيق على معوض دار الكتب العلمية - بيروت.
- الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني تحقيق عادل عبد الموجود دار الكتب العلمية
- الإفهام والإفحام للأستاذ محمد زكى إبراهيم ط مطبوعات العشيرة المحمدية
- إحياء علوم الدين لأبى حامد الغزالي دار الحديث - القاهرة.
- أخبار مكة لأبى العباس المكي الفاكهي تحقيق عبد الملك دهيش ط ٢ بيروت.
- أخطاء ابن تيمية في حق رسول الله ﷺ وأهل بيته د/ محمود السيد صبيح ط ١ سنة ٢٠٠٣م.
- أصول الفقه للإمام محمد أبو زهرة ط دار الفكر العربى - القاهرة.
- البداية والنهاية لابن كثير ط دار الفكر العربى - القاهرة.
- التأمل في حقيقة التوسل د/ عيسى بن عبد الله الحميرى دار قرطبة - بيروت
- تاج العروس للزبيدي المطبعة الخيرية - مصر
- تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ط دار الفكر - القاهرة
- تاريخ دمشق لابن عساكر تحقيق محيى الدين عمر - دار الفكر - القاهرة.
- تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى للمباركفورى دار الفكر - القاهرة.
- تحفة الصديق.
- التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة للسخاوى - دار الكتب العلمية - بيروت.
- تحفة المريد على جوهرة التوحيد للشيخ ابراهيم البيجورى ط الإدارة العامة للمعاهد الأزهرية.

- تذكرة الحفاظ للحافظ شمس الدين الذهبي.
- التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار دار الجيل - بيروت.
- تهذيب الأسماء واللغات للإمام يحيى بن شرف الدين النووي.
- تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ط دار إحياء التراث العربي.
- تفسير ابن كثير ط مكتبة الدعوة - بالقاهرة.
- تفسير ابن جرير الطبري تحقيق هاني الحاج وعماد زكي وخيري سعيد المكتبة التوفيقية - القاهرة.
- تفسير القرطبي تحقيق عماد زكي وخيري سعد ط المكتبة التوفيقية - القاهرة.
- تفسير الكشاف للزمخشري.
- تقريب التهذيب لابن حجر العسقلاني تحقيق محمد عوامة دار الرشيد سوريا.
- التوسل أنواعه وأحكامه لناصر الدين الألباني ط المكتب الإسلامي.
- التقويد لابن نقطة البغدادى ط دار الكتب العلمية - بيروت.
- الثقات لابن حبان البستي ط دار الفكر.
- حاشية البجيرمي على شرح منهج الطلاب في فقه الشافعية ط مصطفى البابى الحلبي مصر.
- حاشية البيجورى على شرح ابن قاسم الغزى في فقه الشافعية ط مصطفى البابى الحلبي مصر.
- حجة الله على العالمين في معجزات سيد المرسلين للشيخ يوسف النبهاني.
- الحجة المؤتاه في الرد على صاحب كتاب إلى التصوف يا عباد الله للشيخ أحمد القطعاني مكتبة الجندی ميدان الحسين.
- حلية الأولياء لأبى نعيم ط دار الكتاب العربي - بيروت.
- الخصائص الكبرى للحافظ السيوطى ط دار الكتب العلمية - بيروت.
- داعية وليس نبياً للشيخ حسن بن فرحان المالكي ط دار الرازي - الأردن.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطى ط دار الكتب العلمية.

- دليل الفالحين شرح رياض الصالحين لابن علان الصديقي ط دار الحديث.
- دلائل النبوة للإمام البيهقي تحقيق عبد المعطى قلعجى ط دار الريان للتراث.
- الذخائر المحمدية للشيخ ابن علوى المالكي ط دار جوامع الكلم - القاهرة.
- رفع المنارة لتخريج أحاديث التوسل والزيارة للشيخ محمود سعيد ممدوح ط دار الإمام النووى الأردن الروض الأنف للسهيلى ط دار الكتب العلمية.
- روح المعانى للآلوسى ط دار الفكر - بيروت.
- روح المعانى للآلوسى ط المكتبة التوفيقية مصر.
- سبل الخيرات لل فوز بالباقيات الصالحات د/ سيعد أبو الإسعاد تقديم د/ على جمعه ط شركة الفتح بالقاهرة.
- سعادة الدارين في الرد على الفرقتين الوهابية ومقلدة الظاهرية لابن العطار السمنودى مكتبة الإمام مالك.
- سنن ابن ماجه بتخريج الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي ط دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة.
- سنن أبى داود تحقيق محمد محبى الدين ط دار الفكر - بيروت.
- سنن الترمذي تحقيق الشيخ أحمد شاكر والأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي ط دار الكتب العلمية - بيروت.
- سنن الدرامى تحقيق الأستاذ فواز وخالد السبع ط دار الريان للتراث.
- سنن الدار قطنى تحقيق مجدى الشورى ط دار الكتب العلمية - بيروت.
- السنن الكبرى للبيهقى تحقيق محمد عبد القادر عطا ط دار الكتب العلمية - بيروت.
- سهام الموحدين في حناجر المارقين لابن مخبون مطبعة الصدق الخيرية - القاهرة.
- سير أعلام النبلاء للذهبي تحقيق لأرناؤوط مؤسسة الرسالة.

- السيف الصقيل للسبكي مكتة زهران.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي ط دار الكتب العلمية - بيروت.
- الشعراوى أنا من سلالة أهل البيت الأستاذ سعيد أبو العينين ط أخبار اليوم.
- شفاء السقام في زيارة خير الأنام للسبكي دار الآفاق الجديدة - بيروت.
- شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق ﷺ للشيخ يوسف النبهاني ط المكتبة التوفيقية.
- صحيح ابن حبان تحقيق شعيب الأرناؤوط مؤسسة الرسالة.
- صحيح ابن خزيمة تحقيق مصطفى الأعظمي ط المكتب الإسلامى.
- صحيح البخاري مع شرحه فتح الباري دار الريان للتراث.
- صحيح مسلم بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي ط دار إحياء الكتب العربية.
- صفة الصفوة لابن الجوزى تحقيق محمود فاخورى دار المعرفة - بيروت.
- صلح الإخوان من أهل الإيمان وبيان الدين القيم للشيخ داود النقشبندى البغدادى ط نخبة الأخبار ؟؟؟؟ طبقات الشافعية لابن قاض شهبه ط عالم الكتب.
- طبقات الشافعية الكبرى للسبكي
- الطبقات الكبرى لابن سعد
- طرح الترتيب في شرح التقريب للحافظ العرافى دار إحياء التراث العربى.
- الفتاوى الكبرى لابن تيمية ط دار المعرفة - بيروت.
- فتح المغيث بشرح ألفية الحديث للسخاوى تحقيق على حسين دار الإمام الطبرى.
- فتح المنعم شرح صحيح مسلم أ . د موسى شاهين لاشين ط درا الشروق.
- الكاشف للذهبي ط دار الكتب العلمية.
- كشف الخفا للعجلونى ط الكتب العلمية.
- كشف الغطاء عن أهل البلاء لسيدى الشيخ صالح أبو خليل.
- لسان العرب لابن منظور ط مؤسسة التاريخ العربى.

- مجمع الزوائد للهيثمي ط دار الريان للتراث.
- المحلى لابن حزم ط دار الكتب العلمية.
- المستدرک على الصحيحين للحاكم تحقيق مصطفى عطا دار الكتب العلمية.
- مسند أبی يعلى الموصلى تحقيق مصطفى عطا دار الكتب العلمية.
- مسند الإمام أحمد ط دار صادر - بيروت.
- مسند البزار تحقيق محفوظ الرحمن مكتبة العلوم والحكم بالمدينة المنورة.
- مسند الحميدى تحقيق حبيب الرحمن الأعظمى - دار الكتب العلمية.
- مسند عبد بن حميد تحقيق السامرائ وغيره مكتبة السنة.
- مصنف ابن أبى شعبة تحقيق عبد السلام شاهين دار الكتب العلمية.
- المعجم الأوسط للطبرانى تحقيق محمد حسن الشافعى دار الكتب العلمية.
- معجم البلدان لياقوت الحموى ط دار الكتب العلمية.
- المعجم الصغير للطبرانى ط دار الكتب العلمية.
- المعجم الكبير للطبرانى تحقيق حمدى السلفى دار البيان العربى.
- المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية ط دار المعارف.
- المغنى لابن قدامة دار الحديث بالقاهرة.
- مقالات الكثرى ط دار جوامع الكلم.
- الموطأ للإمام مالك بترقيم الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء الكتب العربية.
- نحت حديد الباطل وبرده بأدلة الحق الذابة عن البردة للشيخ داود البغدادى دار جوامع الكلم.
- النفحات الجودية أ . د جود المهدى ط الدار الجودية.
- نهاية الاغتياب بمن رمى بالأختلاط للشيخ علاء الدين رضا ط دار الحديث.

